

روایات عبر



فیولیت وینسیر

شهر عسل

www.mlazna.com

مرموریة



روايات عبر

شهر عسل

الكبرياء قناع بامكانه ان يحجب الحب او يحوله الى كراهية
وصدّ ... ولعلّ اختلاف الطبائع والاطباع بين البشر يدفع احيانا
ببعضهم الى التمسك بكبريائه حتى آخر لحظة ، ودومني
الانكليزية التي تزوجت اليوناني بول لم تقبل يوماً واقعها ،
وبرغم الحياة الفريدة التي اعطيت لها على طبق من ذهب ،
بقيت وشائج قلبها متعلقة بشاطئ بلدها ... وبذلك الرسام
الشاب الذي خطف ليتها بحديثه وطموحه ، وركض معها على
الرمال الرطبة ... وتلتقيه في الجزيرة اليونانية بعد سنوات ...
فهل تهرب معه كما يريد ان تفعل ، أم تبقى وفية لذلك النمر
اليوناني بول ستيفانوس ؟

ليثان ٥٠٦ د	الكويت ٧٠٠ ف	اليمن ٨ د	السودان ٧٠٠ م
مشورية ٥٠٨ م	الامارات ٩ د	تونس ١ د	فرنسا ١٠ ف
الأردن ٥٠٠ ف	البحرين ٩٠٠ ف	ليبيا ٧٠٠ د	مصر ١ ب
العراق ٥٠٠ ف	قطر ٩ د	الغرب ٨ د	البحرين ١٢٠ د

١ - الجمر من جليد

كان ثوب زفافها من الخريف اليوناني الجميل، وكان شعرها متوجاً باكليل فضي رقيق، تتدلى منه طرحة دانتيل مطرزة بقلوب صغيرة. وعندما ظهرت دومني متأبطة ذراع عريسها، لم يخطر لأحد أنها تزوجته خوفاً وليس حباً.

ورحل العروسان بعد ساعة متجهين إلى الساحل، واستقلا سيارة أجرة إلى الفيلا الواقعة على الشاطئ الصغير، التي استأجرها بول ستيفانوس لقضاء أسبوع، قبل أن يطيرا إلى أثينا. كان يتمنى دائماً أن يشاهد الساحل الغربي. وأخبر عروسه دومني بذلك وها هي الفرصة قد حانت.

وكان خادم بول اليوناني، وزوجته ليتا، قد سبقا العروسين إلى الفيلا، وأعدا كل شيء لاستقبالهما. كان يوما ساحرا دافئا من أيام الربيع لكن عند غروب الشمس هبت نسمة من البحر، وأشعل الخادم يانيس نار المدفأة في غرفة الجلوس.

وشعرت دومني بالدفع لأول مرة في ذلك اليوم عند دخولها غرفة الجلوس. وخلص بول معطفه، وتقدم نحو الطاولة، حيث كانت زجاجتان ذهبيتا الغطاء في انتظارهما ليشربا نخب العرس.

وقال بول بصوته العميق ذي اللمعة الأجنبية بلهجة

يشع فيها المرح والرضا :

"رائع . لقد تذكر يا ينس طلبي ."

وتكومت دومني بجانب المدفأة تدفئ يديها ، وتهدلت
خصلات شعرها العسلي فوق وجهها ، فأخفت نظرة الفرع التي
قفزت الى عينيها عندما رأت بول يعد المشروب الذي أحست
أنه سيكون بمثابة السم .

وقال بول وهو يعاونها على النهوض :

"دعيني أساعدك في خلع معطفك ."

وكانت أصابعه ماهرة في فك أزرار معطفها ونزعه من فوق
كتفها . ودفعت هي يديها خلال شعرها ، بينما كان يتأملها
بعينين لاهيتين . ثم قال :

"غالبية النساء يشغلن عادة تمشيط الشعر وإعادة الزينة بعد
هذه الرحلة الطويلة في القطار . بدأت أظن أنك إما أن تكوني
غير مغرورة بنفسك على الإطلاق . وإما أنك القروير بعينه في
تظاهرك بعدم المبالاة بحقيقة جمالك ."

ولم تعر كلامه أذنا صاغية ، وواجهته في تماسك سرعان ما
أخذ يتلاشى ، وشعرت بالبرودة تسري في أعماقها ، بينما كان
عقلها يجري في كل اتجاه هربا من فكرة كونها بالفعل
هنا . . . في كورنوال ومتزوجة من هذا الرجل !

ولم تستطع أن تلوذ بالكتمان طويلا ، فخرجت الكلمات منها
عنوة . قالت :

"بول ، هل ستمضي حقا في هذا . . . هذا الزواج الذي أرغمتني
عليه ؟"

وبفتور ، وبطء أخرج علبة سكاثر وقدمها اليها ، ورفضت
بهزة من رأسها ، وأشعل هو سيكارة قائلا :

"أعطيتك الخيار يا عزيزتي ."

ونفث دخان سيكارته واستطرد قائلا :

"أنا لم أرغمك على الزواج بغفوة بندقية ."

الخيار ؟ ارتجفت دومني من الكلمة . هل يعتقد ذلك حقا ؟
وامتلأت عيناها الزرقاوان بالخوف والحيرة وهي تتطلع الى
وجهه . واستقرنا أخيرا على الندبة الفائرة فوق عينه اليمنى .
الندبة كانت الشيء الوحيد الذي يضيف عليه صفة الانسانية .
وقالت :

"أنا ، أنا لا أصدق أنك مصنوع من الحجر لكنك تتصرف كما لو
كنت كذلك . كما لو كان لا يعينك على الإطلاق أنك اعتديت
على حياتي ، وانتزعني من كل ما أحب ، فقط لأكون لعبتك .
هل تعتقد أنني أستطيع أن أغفر لك ذلك ، أو أن أحبك فعلا ؟"
وتشاغل بول بتقليب فحم المدفأة بفرع شجرة ، وارتسمت
ابتسامة غامضة في عينيه وهو يقول :

"أنا مدرك تماما حقيقة نظرتك الي ، لكنها تغاثة عاطفية أن
أكون محبوبا . وليس عندي وقت لأبدده في التفاهات . لدي
نواحي ضعف قليلة يا دومني ، واحدة منها هي حب الاشياء
النادرة . وأنت مخلوقة نادرة جدا ، أنت جميلة ، ولكن غامضة
يمكنك أن تخفي أي شيء ، باردا كان أم مشتعل ."

وسحب نفسا عميقا من سيكارته ، وقال ببطء :

"أردتك ، منذ أول لحظة تقابلنا فيها في فردان ."

وأستطاع أن يأسر نظراتها ، وأن يرغمها على الانصات
اليه . واستطرد قائلا :

"في ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه تزوير ابن عمك ، ذهبت
الى فردان في حالة غضب شديد ، وكنت مصمما على اخبار
عمك بما فعله ابنه الشقي . وكنت هناك . كنت لا تزالين في
المدرسة الداخلية آخر مرة كنت فيها في انكلترا قبل ذلك ،
ولكن في ذلك اليوم بالذات كنت قادمة لتوك من نزهة . كان
فمك ورديا . وعيناك شديدي الزرقة . ومنذ تلك اللحظة أصبح
تورط ابن عمك سلاحا في يدي ."

وتأملها . . . ثم استأنف قائلا :

"انك تجفلين يا دومني، ولكنني كنت آمل ألا أستعمل هذا السلاح. كنت آمل أنك قد... في أي حال أصبح واضحاً أخيراً أنك تنظرين الي فقط على أنني اليوناني الجاف الذي يعمل عنده ابن عمك كمساعد مدير في أحد مكاتب خطوط ستيفانوس للملاحة البحرية".

وعاد الى السكوت، وبينما اهتزت أعصاب دومني، وارتفع صوته من جديد يقول:
"أردتك... وبأي ثمن".

وارتعدت، كارهة صراحتة القاسية، لكنها مدركة أيضاً أنه لو تحدث عن حبه لها، لكانت احتقرته. وطافت بنظراتها حوله كما فعلت أول يوم قابلته في فردان، عندما حذرتها غريزتها أنه خطر يهددها بوجهه الوثني، وبعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان عيني النمر، وبشعره الداكن القصير المجعد، الشبيه بصوف الغنم.

وتباعدت عنه إذ كان يشع قوة وخطورة، وقالت بصوت مضطرب كانت تحاول أن تحتفظ بسيطرتها عليه:
"لا أعتقد أنني يمكن أن أستمر في هذا الزواج يا بول... أرغممني على موقف قاس، غير متحضر، وأنت لا تحمل لي ذرة من المشاعر".
قال:

"كبرياؤك هو الذي أرغمك على اختياري، مفضلة ذلك على رؤية اسم اسرتك في محاكم الجنايات".
وسكت برهة، ثم قال:

"ولماذا أرثي لك، وأنا الذي يجب أن يعجب بك لانك واحدة من اللواتي يؤثرون العذاب على رؤية من يحببن في الوحل؟"
والقى ببقايا سيكارتة في النار، وتقدم منها. ومن جديد تباعدت عنه، لكنه أمسك بها وهمس:
"تعالى... أنا لست وحشاً".

وذعرت عندما لمحت بريق عينيه الذهبي من خلال أهدابه السوداء الكثيفة. وعاد يهمس:

"أستطيع أن أكون لطيفاً خاصة مع شيء جميل مثلك، أنت جميلة للغاية، وكلك كبيراً، أنك جليد مشتعل".
وسأل ساخراً:

"يا ملاكي الصغير... هل توقفت عن الابتسام الى الابد؟ هل ستنظرين الي دائماً بهاتين العينين الغابتين؟"
فقالت:

"وماذا توقعت؟ عينين مليئتين بالحنان؟"

وبدا عليها انها على وشك البكاء وقال:

"لا أسالك أن تحبيني يا دومني، ولكن لا تكرهيني..."
"أنا أحتقرك".

خرجت الكلمات عنيفة من فمها وأحست بالنفور من قربه. من لمسة يديه. بل ومن النفور لادراكها أن وجهه كان أجمل وجه رأتها، رغم الندبة التي تعلو عينه اليمنى. نعم كان وسيماً، وقاسياً.

وانطلق يمسح جبينها، إذ دخل في تلك اللحظة يانيس بصينية الشاي، والتي وضعها فوق المنضدة. وجلست دومني تسكب الشاي. ولا شيء في وجهها له لون سوى عينيها وقمها.

وكان بول استأجر الفيلا مفروشة، وفي نظرة الى المكان تبينت أنه لا شك دفع ايجارا مرتفعاً. نقوده كانت تخيفها. حولته الى رجل لا يعرف، أو لا يهتم، بأن هناك أشياء لا يستطيع أن يشتريها أبداً. مثل الحب والشرف اللذين يجبرها الزواج على منحهما اياه.
وقال بول لخادمه:

"أنا مسرور لتذكرك مشروبي يا يانيس. سنشربه طبعاً مع عشاء عرسنا".

ورفعت دومني بصرها ، ورأت وجه الرجل اليوناني يفتر عن ابتسامة خفيفة . كان قليل الكلام ، شديد الولاء لسيده . وبعدما أكد لسيده الجديدة الشابة أن عشاء العرس سيكون جاهزا بعد ساعة ، انسحب بهدؤ من الغرفة .

وناولت دومني فنجانة . وارتشف رشفة ، ثم قال ضاحكا :
" اني أتساءل اذا كنت سأعتاد الشاي الانكليزي " .
سألت ببرود :

" ولماذا لم تطلب قهوة ؟ "

وجلس على ذراع المقعد قائلا :

" أعرف أنك تفضلين الشاي يا عزيزتي " .

وقاومت نفسها حتى لا تتحرك بعيدا عنه . وأعاد الشاي الساخن بعض الحياة الى جسمها البارد ، لكنها لم تشعر بالامتنان لبول اذ أوحى لنفسها بأن عليها أن تكره الاشياء التي يمنحها اياها ، مثل الثوب الأبيض وطرحه الزفاف ، التي أرسلت اليها في انكلترا بأمره من وطنه جزيرة أنديلوس .
وبدون ان تنظر اليه سألته :

" هل احرقنت الشيكات المزورة كما وعدت ؟ "
" ليس بعد " .

وعندما نظرت اليه بسرعة ، ابتسم قائلا :

" ربما استقرت في رأسك الجميل فكرة الهرب مني ، لذلك فالشيكات المزورة ستبقى ، حتى الغد " .

واحتقن وجهها ألما ، عندما فهمت ما يقصد . وقالت :

" هل ... هل تعد باحراقها غدا ؟ "

قال مطمئنا :

" سأحرقها في وجودك " .

بعد دقائق صعدا الى الطابق العلوي ليرتديا ملابس العشاء - وكان جناحهما الابيض مزينا بالورود المختلفة ، وكان ملحقا بكل غرفة نوم حمام خاص - وتأخرت دومني في أخذ حمامها ،

حتى سمعت الباب المشترك يفلق ، وتأكدت أن بول آستحم ، وارتدى ثيابه ، ونزل . وحينئذ لغت نفسها في منشفة كبيرة بيضاء ، وخرجت من الحمام الى غرفة نومها . وعندما اقتربت من مائدة الزينة ، وقع بصرها على علبة مجوهرات لم تكن موجودة عندما دخلت الحمام . وحدقت فيها كما لو كانت شيئا يمكن أن ينقض عليها ويفتك بها . لابد ان بول هو الذي أحضرها . وفكرت أن تنقلها الى غرفته بدون أن تفتحها . لكنها متأكدة أنه سيرغمها على أن ترتدي ما في العلبة .

وفتحت العلبة ، ووجدت داخل بطانتها الحريري مشبكا من اللؤلؤ على شكل قلب تحيط به قلوب ياقوت كدموع من دم متفجرة ومعه قرط مشابه له .

وحدقت دومني في المجوهرات التي سحرتها بجمالها ، ثم شعرت كأنها تسخر منها . نزعت المشبك ، ورمته وهزتها دموع الغضب ، واستلقت فوق سريرها تبكي بدموع ساخنة ، كما لم يحدث من قبل في حياتها .

كانت سيدة نفسها . ابنة الأخ المحبوبة لمارتن دان الذي عاملها دائما كابنة منذ جاءت اليه طفلة ، بعدما غرق والداها . ثم ... وسط فيضان دموعها ... جلست ، ورفعت خصلات شعرها عن وجنتيها المبللتين وحدقت بقلب واجف في الباب المشترك . قال بول انه سيتخلص من هذه الشيكات في الغد . اذن فهي موجودة في الفيلا . في غرفته . وقفزت من سريرها ، ونسيت دموعها وهي تقترب من الباب . اذا عثرت على الشيكات فستعدها بنفسها ، وستتحرر من بول ستيفانوس !

وازداد خفقان قلبها للفكرة . ثم ان الفيلا قريبة من مدينة لوهو وستستطيع بكل تأكيد ان تجد غرفة تقضي فيها ليلتها . وأدارت مقبض حجرة بول وأضاءت النور . كانت هناك زجاجات عطر رجالي على مائدة الزينة ، كما كانت بيجامته السوداء الحريري ملقاة فوق السرير ، ورائحة دخان سيكاره

ما زالت تعبق جو الحجرة . وتملكها الرعب لكنها سرعان ما تغلبت على اضطرابها واقتربت من الدولاب المحتمل ان يحتوي حقيبتها .

ودق قلبها بعنف، فلم تجرؤ على الحلم بوجود طريقة للهروب من بول واسترداد حريتها التي كانت تعجز بها كثيرا . صحيح أنها منذ أربع سنوات، عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها . كانت على وشك الوقوع في الحب مع فنان شاب، كان يعمل بالقرب من مدرستها الداخلية . ولكنها كانت قصة حب بريئة ومرحة . وخرج باري من حياتها كما دخلها . ولم تسمع عنه منذ ذلك الحين .

وفتحت دولاب بول، وقفرت بعصبية عندما اطلت عليها صورتها المنعكسة على المرأة الداخلية . أخافتها نظرات عينيها المشتعلة، فالصقت باب الدولاب بالحائط حتى لا ترى نفسها . ولمس كم سترة من التويد وجنتها وهي تنحني، فازاحتها عنها كما لو كانت ذراعا تحاول الامساك بها .

في الطابق السفلي وقف بول أمام إحدى النوافذ متكئا بكتفه على اطارها ومتجها ببصره الى شاطئ البحر القريب من سلاسل الفيلا . وفي الخارج اشتدت الرياح، وأخذت الأمواج ذات الزبد الأبيض تتكسر على الصخور، يضيئها نور القمر المتسلل من بين السحب، وصار صوت البحر كزعد يخترق الجدران، فوضع بول يده على صدغه الايمن، وكأنه يسمع صداه في أذنه:

وجاء يانيس الى الحجرة قائلا:

"معذرة ياسيدي . مكالمة خارجية للسيدة ."

واستدار بول، وخرج من دائرة الظل بجوار النافذة، وقال وقد ظهرت الدهشة على وجهه:

"مكالمة لزوجتي؟ حسنا سأرد عليها يانيس ."

وخرج الى الصالة، ورفع سماعة الهاتف وذكر اسمه،

وفي الحال وصل الى أذنيه صوت "مارتن دان" عبر الاسلاك، وكان مختلجا بالانفعال:

"بول . . . يجب أن أتحدث مع دومني حالا . . . من فضلك دعها تكلمني فالامر هام للغاية ."

وتقلصت يد بول فوق سماعة الهاتف وهو يسأل:

"ماذا حدث؟"

"ابني دوغلاس أخبرني عن النقود التي أخذها منك . تلك الشيكات التي زورها باسمك ."

وساد صمت . كما لو كان مارتن دان لا يكاد يصدق أن ابنه فعل ذلك واستطرد قائلا:

"بول . . . ابني شعر بأنه يجب أن يخبرني . . . من أجل دومني . . . انه يعتقد أنها تزوجتك، باعت نفسها في الواقع، لتنفذ كبرياءنا التمس ."

"باعت نفسها لي؟ يا لها من فكرة عقيمة يا سيد دان! انها ترجع الى القرون الوسطى ."

"أنا أعرف دومني، وما الذي يمكن أن تفعله من أجل من تحب . . . وأعرف أيضا أن ابنة أخي لا تستطيع أبدا أن تحبك ياستيغافانوس، انك لست من يوافقها لانك من عالم آخر . أمازلت تنصت الي؟ اذن فأنا ألح في التحدث الآن مع دومني ."

ووقف بول صامتا، وقد تجهم وجهه وبرقت عيناه الذهبيتان، ثم قال:

"أعرف أنني من بلاد أخرى ياسيد دان، واني أتكلم الانكليزية بلكنة غريبة، ولكن شيئا من ذلك لا يغير حقيقة أن السيدة ابنة أخيك هي الآن زوجتي ."

صاح مارتن دان بثقة:

"الزواج يمكن ابطاله ."

سأل بول بلهجة مهذبة:

*على أي أساس؟

*عدم المعاشرة، هذا هو القانون.

*ربما يكون ذلك هو القانون، ولكن الحقيقة أيضا ياسيد دان، أنني ودومني انفردنا هنا لعدة ساعات. انها جذابة جداً ياسيدي. وأنا لست انكليزيا رقيقاً.

واشتد الصمت على الطرف الآخر، وارتسمت ابتسامة خافتة على وجه بول - كان مارتن دان رجلاً انكليزيا مهذباً للغاية ملتزماً في حياته بمجموعة من المبادئ وبصوته الانكليزي الجاف الممزق قال:

*ستيغانوس دع دومني تمضي، انك لا تحبها، انك تريد امرأة تكون رمزا لنجاحك في تلك الغابة من العالم، المال والتألق، لا شيء من ذلك يهم دومني.

*ولكن أن يكون في استطاعتها ان ترفع رأسها، وأن تواجه الناس، أمر هام بالنسبة اليها ياسيد دان. وهل يستطيع واحد منكم أن يفعل ذلك، اذا وضعت دوغلاس في السجن؟

وهل يمكنك أن ترفع رأسك، وأنت تعلم طول الوقت أنك أرغمت دومني على أن تصبح زوجتك؟ لابد انها تكرهك.

*انا رجل غريب. أفضل أن أتزوج امرأة تكرهني بشرف، على أخرى تحبني بدون شرف.

وبعد أن نطق بول بهذه الكلمات، وضع الساعة ليقطع الاتصال، ثم رفعها مرة أخرى وأسندها الى المنضدة، وعبر الصالة الصغيرة متجها الى صالة الطعام حيث كان يانيس يضع اللمسات الأخيرة للمائدة، وأخبره أنه رفع الساعة، وأنه يريد ان تظل في مكانها. ولم يناقش يانيس الأمر. اذ كان بول السيد في بيته، حسب التقاليد اليونانية.

وقال بول وهو يداعب بأصابعه الورود الحمراء في الزهرية بين مكانه ومكان دومني، والشموع الكهربائية المعدة للاضاءة.

*المائدة تبدو رائعة.

*سيكون العشاء جاهزا بعد عشر دقائق ياسيدي.

*اذن فمن الافضل أن أذهب لأخبر زوجتي. يا للوقت الذي تستغرقه النساء في ارتداء ملابسهن!

وابتسم يانيس، وراقب بول بعينه الذاكنتين وهو يخرج من الغرفة. ثم لمس بدوره الورود وزفر زهرة شديدة حركت لهيب الشموع التي أضاءها.

وصعد بول السلالم، واتجه الى باب غرفة دومني. ولم يتلق ردا على طرقة، فأدار المقبض ودخل، واتجه بصره في الحال الى الباب المشترك الذي كان مفتوحا على مصراعيه، ودخل بدون أن تسمع له وقع أقدام بفضل السجادة السمكية، وفاجأ دومني متسائلا:

*ماذا تفعلين؟

كان كل شيء مبعثرا: قمصانه، وملابسه الداخلية، وأوراقه والادراج مفتوحة، ومحتوياتها ملقاة في كل جانب.

وسقطت الاوراق التي كانت دومني ممسكة بها، اذ استدارت لتتخاضى مواجهة بول. ثم وقف كل منهما يحمق في الآخر وأخيرا تقدم منها، وامسك بكتفيها. وقال:

*عم تبحثين؟ عن تلك الشيكات التي زورها ابن عمك؟ يا جميلتي البلهاء هل تظنين أنني من حماقة احتفظ بها هنا، حيث يمكن أن تضعي يديك عليها؟ انها مودعة في امان في احد بنوك لوفو.

سأعيد ترتيب كل شيء ..
بل سترتدين الآن ثيابك ..

وسمعه يطلق ضحكة هادئة وهو يتركها تقف على قدميها ويقول:

"دومني ... لا تحاولي الهرب مني أبدا سوف أمسك بك دائما، وسأحتفظ بك طالما أن ذلك يسرني .."
وأحست بالتهديد يسري من أطراف أصابعه الممسكة بها إلى أعماق أعماقها .. ثم انصرف إلى حجرته، وأغلق الباب خلفه بهدوء ..

ذهب ليعيد ترتيب أوراقه وحاجياته التي ألقتها على الأرض لكن بعدما نجح في أن يشعرها بالخجل من تصرفها، فأضاف بذلك وقودا إلى النار التي كانت تحس بها وهي تبدأ في ارتداء ملابسها ..

واختارت الثوب الأزرق المغطى بالاورغانزا البيضاء، وكان هدية من صديقة تدير محل أزياء في الوسط اند في لندن .. كان طرازها رائعا، وكانت دومني تعرف أن الخوف من بول هو الذي دفعها إلى اختياره لعشاء العرس معه .. أن بعثرتها غرقت أغضبه بشدة، وشعرت أنها بظهورها في هذا الثوب الذي كان يمتزج فيه الأزرق مع الأبيض، تستطيع أن تحمي نفسها من هذا الغضب الذي يجعل منه عاشقا مرعبا ..

وكان القرط المحلى بالؤلؤ والياقوت ما زال في العلبة على مائدة الزينة، لكنها عندما عثرت على المشبك بجانب ركن السرير، اكتشفت أنها لا تستطيع ارتدائه هذه الليلة بالذات .. وارتدت بدلا منه العقد اللؤلؤي الذي ظهرت به مع ثوب الزفاف والذي كان ملكا لأمها، وشعرت بشيء من الراحة .. والشجاعة أيضا ..

واختارت عطرا فرنسيا .. ثم تأملت نفسها في المرأة طويلا .. رأت عينيْن جزيْنتين لامرأة تزوجت، لتنفذ كبرياء أسرتها،

٢ - أي حب؟

بهذه الكلمات أطفا بول بريق الأمل في قلب دومني التي وقفت في مواجهته بدون أن تحس الغضب في ضغوط يديه فوق كتفها .. كان يجب أن تدرك أنه ما كان ليترك أمامها منفذا للهرب - لقد دفع فيها ثمنا غاليا ولم ينل بعد المقابل .. ووقفت بدون حراك، بينما أخذ هو ينقل بصره متأملا الدموع التي انسابت على وجنتيها الشاحبتين، وشعرها العسلي الغزير الذي تجعدت أطرافه بتأثير الحمام، وتهذلت خصلاته فوق كتفها العاريتين، فبدأ في انسجام أسر مع البشرة البيضاء الصافية ..

ولاحظت دومني رجفة على ركن فم بول .. ثم أسدلت جفنيها وهو يرفعها بقوة، ويحملها إلى غرفتها ولم يتركها في الحال، بل وقف يتأملها ثم همس:

"ان نظرة البساطة يمكن أن تخفي متاهات معقدة .."
وعاد يتفحصها، ثم قال:

"لا بد أنك تكرهني للغاية يا صغيرتي حتى تثيري غضبي ببعثرة حاجياتي في أرجاء الحجرة، انك تستحقين صفعه على ذلك .."

لن تحظى في هذا الزواج بالتقارب والتفاهم. لن تستمتع ببهجة او بمودة.

وباعصاب مرتجفة كجذور منزوعة من ارضها غادرت غرفتها في طريقها الى عشاء عرس كتيب، ولمحها بول عندما ظهرت على قمة السلم. وألقت نحوه نظرة جانبية لتعرف هل ما زال حائقا عليها. وطمانتها ابتسامته التي سخرت من مخاوفها. وصعد اليها. وشعرت بخفقة في قلبها وهو يقول لها:

"تبددين كملاك في هذا الثوب... واشعر انك ستتلاشين فجأة وراء سخابة، وتتركيني وحدي".

ورمقته بفضول وهما يدخلان حجرة الطعام. ولأول مرة تساءلت اذا كان تزوجها رغبة في رفقتها وليس لجمالها فحسب.

وفي بدلة السهرة. كان خلاها أكثر من أي وقت مضى. شعرت به عملاقا اغريقيا في قميصه الحريري وسترته السوداء. ولم تكن هي ضئيلة لكن طوله الفارع جعلها تعاني ذلك الاحساس.

وفجأة داهمها الشعور بأنه يقاسي الوحدة. انه غني، ووسيم، وجذاب الى حد الروعة. لكن هذا الرجل كان وحيدا وغامضا. وهي أصبحت زوجته!

ولم تكن دومني ذاق طعاما طوال اليوم، وشعرت فجأة بالجوع ويانيس يضع أمامها طبقا من المحاربات الشهية. وهمست:

"بدو لذيذا".

ومنحت يانيس ابتسامتها الخلوة. ابتسامة لم تمنحها الى بول قط، الذي لم تنبهه الى أنه كان ينظر اليها وهو يفتح الزجاجاة. وفرقع غطاء الزجاجاة، وفار السائل الذهبي، وانسكب على جوانب الزجاجاة، وغمس بول اصبعه ومسح بها خلف أذن دومني، وقال مازحا في شيء من السخرية وهو

يملا كأسها:

"هذا يجلب لك الحظ يا دومني".

وجلس امامها، وملا كأسه هو الآخر، ثم رفعها مرددا نخبيا باليونانية. فسأله دومني دون أن ترفع رأسها عن الطعام:

"هل يمكن أن أعرف معنى ما قلت؟"

"قلت ان في كل كعكة زواج، الامل هو أحلى ثمرة".

وحينئذ رفعت بصرها، ولمحت ضوء الشموع يسكب ظلاله على صدغيه وجبهته ذات الندبة. وسمعه يقول:

"مما يدعو للأسف أن أحدا لم يعرف الآخر بما فيه الكفاية، فلو كانت الفرصة أتحت لنا للرقص والنزهة لساعدك ذلك على أن تكوني أقل خجلا معي. لكن لا حيلة لنا في الأمر. كانت لدي أعمال هامة هنا في انكلترا استغرقت معظم وقتي. وهذه الاعمال هي التي أتت بي على غير ما توقعت".

وشعرت برجفة تسري في كيانها، لأن وصوله غير المتوقع الى انكلترا كان أول خيط في نسيج "الورطة" التي تعيش الآن دوامتها. فلم يكن هناك وقت لدى دوغلاس ليفطي خسائر المقامرة وليرد المبلغ الضخم الذي اختلسه من الشركة. وعجزت هي عن أن ترى ابن عمها الضعيف الجذاب، محكوما عليه بالسجن لحماقته... تمت فقط أن يستوعب الدرس... ولو على حسابها!

وانتهيا من تناول الطعام، وأقبلت زوجة يانيس تقدم القهوة. كانت سمراء متحفظة، تجري في عروقها الدماء الرومانية. وقدمت لدومني هدية صغيرة، فرحت بها، حتى أنها نسيت برهة أنها ليست عروسا عن حب - كما كانت ليثا وزوجها يظنان - وكانت الهدية عبارة عن سلة صغيرة من المعدن والزجاج هليئة بالتفاح المسكر.

وابتسمت دومني قائلة:

"انها جميلة للغاية وغير عادية كم هو لطيف منكما!"

ووقفت ليتا لحظة تتأمل وجه دومني الجميل، ثم قالت:
"لتكن السعادة دائما من نصيبك، وليباركك الله
وليمنحك..."

ونطقت كلمة باليونانية، وساد الغرفة صمت بعدما انسحبت
ليتا وأغلقت خلفها الباب، وحينئذ لم تستطع دومني أن ترفع
عينيهما عن وجه بول، وتلاشى الاشرار من وجهها فجأة،
وامتلأت عينها بنظرات القلق وهي تسأل هامسة عن معنى
الكلمة اليونانية التي نطقت بها ليتا...

ورد بول في هدوء قائلا:

"تعني طفلا... صبيا..."

وتصرفت التذبة فوق عينه عندما لمع الخوف في نظراتها،
وانحنى هي بسرعة فوق صينية القهوة، وملأت الفجائين
الصفيرين، بالقهوة التركية، وعندما ناولت بول فنجاناه كان
وجهها مقنعا بالجمود.

وشربا عدة فناجين، ثم نهضت دومني، وأخذت تتطلع بقلق
الى محتويات الحجرة من لوحات فنية وقطع أثرية. وأخيرا
وقفت أمام الستارة الكبيرة التي تغطي النافذة. وفجأة تخلى
عنها الهدوء الذي التزمته أثناء تناول العشاء، وأخذ معه
اهتمامها بجزيرة أنديلوس التي تحدث عنها بول. بهرما
بعض الشيء وصفه جمال الجزيرة، وكلامه عن بيته القائم
فوق ربوة عالية مظلة على شاطئ خاص، كان السكان
يسمونهم "بيت صخرة النسر".

وفجأة قالت بصوت مختلج:

"دعني أذهب يا بول، دعني أذهب لو كان لك قلب، انت تعرف
أنني لا أحبك..."

وهنا تقطعت أنفاسها، واحتبس صوتها، وأمسكت الستارة
بيدها كأنها تحتفي بها. وبينما كان بول ينهض من مقعده
ويعبر الغرفة في اتجاهها، تأملت، رأت فيه قوة

النمر وسيطرته اذ يمكنه ان يسحق كافة العقبات التي تعترض
طريقه الى ما يريد.

وسأل:

"وما هو المفروض أن أفعله اذا تركتك تذهبين؟ هل تتوقعين
مني أن أحرق هذه الشيكات في مثل هذه الحالة، وأخرج خالي
الوقاض، أو أكتفي بالرماد؟"

"وما الذي يمكن أن يحققه لك زواجنا، لا شيء أيضا سوى
ذرات رماد..."

وكان اليأس يطل من عينيهما وهي تتكلم، وهو أمامها
بوجهه الوسيم وكل قسمة تنطق بالقوة وبالعناد. وعادت
تقول:

"اذا أرغمتني على الحياة معك يا بول... سأكرهك..."

وأطلق ضحكة ناعمة وقال:

"الكراهية والحب متشابهان يا أسيرتي... كلاهما عاطفة
عمياء..."

"لا يوجد حب بيننا... ولن يكون أبدا..."

وبرقت عينها تؤكدان المعنى. وتقدم منها قائلا:

"أه... ولكنك تتكلمين عن الحب الرومانسي..."

واقترب وامسك بوجهها بين يديه الدافئتين، وأخذ يبحث
في أغوار عينيهما وهو يقول:

"يمكنك ان تجدي لدي اي حب الا ذلك النوع الذي تقرأين عنه
في الكتب..."

وازداد خفقات قلبها وهو يتكلم. وفكرت في باري الذي
أسعد قلبها وجعلها تتساءل عن الحب وأسراره...

وعاد بول يهمس:

"هل أخبرك رجل من قبل أن لك عيني رائعتين، أشبه
بالسماء الصافية؟"

وأحنى رأسه وقال:

"يجب أن تفهمي يادومني أنني عندما أعقد صفقة أحرص كل الحرص على الوفاء بالتزاماتي، وأحرص أيضا على أن يقوم الجانب الآخر بالتزاماته".

همست مصدومة:

"ذلك في العمل، ولكن هذه حياتنا، سعادتنا، هل أنت متشائم إلى حد يجعلك لا تؤمن بالسعادة؟ هل أنت جامد، حتى أن شيئا لا يؤذك؟"

"لا يمكن أن يؤذيني ما يظنه الآخرون عني، أنا يوناني، ولا يهمني إلا ما أعتقد أنه أنا في نفسي. عقدنا صفقة يادومني، هذا الصباح. أنت زوجتي، ولن أدعك تذهبين".

وأحسنت أنه يعني كل كلمة نطق بها، كان ذلك مسطورا على صفحة وجهه، الوجه الجميل، القاسي، تنبعت من عينيه اشعاعات تطاردها، وتخيفها. وفجأة تخلصت من ذراعيه، وقفزت من الشرفة الكبيرة، وأسمرت بجنون في اتجاه الشاطئ.

وتقاذفتها الرياح الباردة، وتعثرت فوق الرمال بحذائها ذي الكعب العالي. فوقها كان القمر مختفيا وراء السحب، يلقي عليها ضوءا باهتا من الظلال.

وألقت نظرة مدعورة خلفها. كان بول يتعقبها. وفي الضوء الخافت بدا وجهه شيطانيا. وانطلقت تجري بكل قواها. يأس غريب دفعها إلى الهرب منه، حتى أنها لم تتبين مدى قربها من البحر والصخور الناتئة عند طرف الشاطئ. وفجأة ارتفعت أمواج البحر. وأطلقت دومني صرخة عندما تعثرت وسقطت على صخرة. ثم شعرت بموجة هائلة تغطيها، وتسحبها. واصابتها برودة الماء بصدمة بدأت تفقد الوعي. لكن صوتا هادرا كان يتردد في أذنيها: "دومني... دومني" مصحوبا بكلمة يونانية ضاعَت وسط مدير الأمواج.

وقفز بول بعدما خلع حذاءه، غير عابىء بالعاصفة

وسبح بقوة في اتجاه الذراع النحيل الذي كان كل ما ظهر له من زوجته. وعلى ضوء البرق بدأ يلوح وجهها المذعور. وبعد لحظة، كان يضمها وسط الأمواج بينما تشبثت هي فيه بعنف كتشبث الإنسان بالحياة وساعدها على رفع رأسها فوق الماء، وبدأت تنبئه، وتذكر من هو منقذها... بول... زوجها، الذي تركت جسمها المذعور في حمايته.

وحملها حتى الشاطئ، وصعد بها سلالم الفيلا، ودلف إلى غرفة الجلوس من خلال الشرفة الكبيرة، وارتجفت دومني بين ذراعيه، وسعلت قليلا، وعندما نظر إليها تساقطت المياه من شعره الداكن على وجهها، وفتحت عينيها الزرقاوين وتحركت شفاتها بلا صوت ترددان اسمه... وقال هو بمنتهى الرقة:

"كل شيء على ما يرام يا طفلي الحبيب، أنت الآن في أمان".

وأسرع إلى الأريكة البيضاء بجوار المدفأة، وضغط على الجرس مستدعيا يانيس، الذي أقبل ليجد بول راكما بجانب الأريكة، فقتربا من شفتي دومني المرتجفتين كأسا من الشراب، وحملق الخادم فيهما. وقال بول بلهجة جادة:

"كنا ننزله على الشاطئ، وسقطت زوجتي في الماء أخبر لي أنا أنني أريد زجاجة ماء ساخن في سرير زوجتي حالا. وأيضا أن تعد لها حماما ساخنا. واحضر لي ازار الحمام السميك، بسرعة".

وجرى يانيس إلى المطبخ، وباليونانية شرح لليت ما حدث، شبت الدهشة في عينيها، وقالت:

"هذه كارثة ليست غلامة طيبة يا يانيس. يقال إن من يغني في الصباح يبكي قبل الصباح التالي".

"ما الذي تتحدثين عنه أيتها المرأة؟"

وحدق يانيس في زوجته بينما كانت تملأ الزجاجات بالماء الساخن. فقالت:

"ألم تسمعه يغني قبل الإفطار هذا الصباح؟ عروسان يتنزهان على الشاطئ في ليلة عاصفة... أليس ذلك غريباً؟"
"تعتقدين أنهما تشاجرا؟"

"أظن أنه من الأفضل أن تسرع بإحضار أزار الحمام، والا فلا البيت صياحاً".

وبعدما أحضر يانيس الأزار لسيدة، قال بول لدومني:
"ساخج ثيابك المبللة، لا تقاوميني والا عرضت نفسك لانهاك أكثر مما أنت عليه الآن".

وكانت بالفعل منهكة جسمانياً وعقلياً، وارتجفت مثل قطعة مبللة. كانت نظراته ولمساته أبوية، وكان حانياً وهو يلقيها في الروب، وعندما رفعها عن الأريكة، تركت ذراعها يلتف حول عنقه، وظلت على هذا الوضع وهو يصعد بها السلالم إلى جناحهما الأبيض، حيث كانت ليتا في انتظارهما. فقال لها:
"أعطها حماماً ساخناً ثم ضعها في سريرها، وناولها كوباً من الحليب الساخن".

وأومأت ليتا برأسها، وقالت دومني وهي تقاوم ضعفها:
"تصبح على خير يا بول، انا، أنا أسفة على خروجي وسط العاصفة".

"أنا أيضاً أسف، في أية حال، انسي ما حدث، وحاولي النوم. سأراك في الصباح".

وانصرف إلى غرفته مغلقاً الباب خلفه جيداً. وبعد لحظات قليلة لحق به يانيس وقال:

"أعددت لك حماماً ساخناً ياسيدي".

وفي شرود سأل بول:

"ماذا قلت يا يانيس؟"

"أنت مبتل تماماً ياسيدي، الحمام جاهز".

وابتسم بول وربت على ذراع خادمه شاكراً.

واستسلمت دومني للنوم بمجرد أن انتهت من

شرب الحليب. كان نوماً ثقيلاً في البداية، بلا أحلام، ثم فجأة، حلمت أنها تجري على شاطئ بارد. تسمع هدير الموج، وتتحس بكعبها العالي يقوص في الرمال، وكان القمر يطل عليها من خلال السحب. وشيئاً ما كان يتعقبها. واستدارت وألقت نظرة سريعة، فראت قطاً ضخماً يطاردها تتسع عيناه بريقاً ذهبياً مخيفاً. كانت متأكدة أن الحيوان إذا أمسك بها، فسيمزقها أرباً.

وأخذ يتقدم ويتقدم، وعندما أوشك أن يمسك بها، صرخت:

"دومني، طفلتي، ماذا حدث؟"

وأفاقت على الصوت، وتلاشى الكابوس، ووجدت النور مضاءً، وبول منحني فوقها، ممسكاً بكتفها بيدين دافئتين ثابتتين. وعاد يقول بخيث وقلق معا:

"هل من عادتك أن تصرخي في نومك؟"

"هل... هل صرخت حقاً؟"

وتأملته على الضوء الخافت خللات شعره الداكن متهدلة فوق جبينه. والبيجاما السوداء الحريرية مفتوحة، يظهر منها صدره العريض الكثيف الشعر.

وسألت:

"كم الساعة؟ هل اقترب الصباح؟"

"جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل".

ثم افتر ثفره عن ابتسامة كشفت أسنانه البيضاء وهو يقول مازها:

"أرجو فقط ألا يكون يانيس وزوجته سمعا صرختك".

وهزت كلماته قلبها، ورغم ذلك وجدت نفسها تبتسم وتقول هامسة:

"أعتقد أنه كابوس، يا للفرابة، لم يحدث لي ذلك منذ كنت طفلة".

ونظر اليها بول، ثم جلس على حافة سريرها .. وسالها :
هل كان كابوسا يتعلق بي؟ ولكنني يادومني لن أسيء اليك
أبدا .. ألا تعرفين ذلك ؟

وأمسك بيدها ورفعها الى قلبه، وضغطها .. وعلى الضؤ
الباهت تأملت دومني وجهه، ومن جديد لمحت معاناة الوحدة
على ملامحه فظلت راقدة بلا حراك وهي ترنو اليه بعينيها
الزرقاوين الواسعتين .. كانت ترى غريبا ليس سوى زوجها
وفي اليد التي ضمها الى قلبه القريب، الأجنبي، المعقد،
لمحت الخاتم الذهب الذي يؤكد حقوقه عليها ..

٣ - الهدية المرفوضة

عندما استيقظت دومني، كانت أشعة الشمس تسفلت من
خلال ستائر حجرة النوم لكن خلال لحظات ظلت غير قادرة على
معرفة مكان وجودها .. وتجولت ببصرها في أرجاء الحجرة، ثم
وقع نظرها على صينية الشاي الموضوعة على مائدة بجانب
سريرها .. وحدقت في آثار على الوسادة المجاورة، وفي لمحة
عادت اليها ذاكرتها ... لقد تزوجت بول ستيفانوس،
اليوناني الوسيم الغامض، الذي يملك خطوطا للملاحة
البحرية، والذي سرق منه ابن عمها دوغلاس مبلغا كبيرا ..
وكانت يداها ما زالتا تشعران بملمس كتفي بول العريضتين
الصلبتين، وعقلها ما زال واعيا للكلمات اليونانية الغريبة التي
همس بها محمومًا في الليلة الماضية .. وتذكرت أنها استغرقت
في النوم قربه ..

وجلست وسكبت لنفسها فنجان شاي .. ورشفت منه
بابتسامة على شفثيها .. ورنّت باسترخاء الى يدها اليسرى
حيث خاتم الزواج، مشيراً لها بمستقبل لا تجسر على التفكير
فيه ..

واخذت حماماً ثم ارتدت بنطلونا وبلوزة بيضاء من الخريف،
وبعدما مشطت شعرها، عقصته الى الخلف بمشبك، ولمحت

في المرأة النظرة الجديدة في عينيها، نظرة المعرفة العميقة الغامضة، وارتسمت على قمها ابتسامة وهي تتأمل عنقها الطويل... الا ان امتلاكه اياها في الليلة السابقة لم يفرعها. ولمحت احتقانا ينساب الى وجنتيها، واستدارت بسرعة لتهرب من عينيها.

وعندما دخلت غرفة الطعام، كان بول أمام المائدة يقرأ صحيفة الصباح ورفع رأسه وابتسم قائلا:

"صباح الخير يا سيدة ستيفانوس".
ووقفت في حياء بعدما ردت التحية، ثم جلست بدورها. ولاحظت الشمس تلقي بأشعتها على شعر بول الداكن. واطمأنت الى أن عاصفة الأمس انتهت على خير، وأصبح الجو صافيا، وأبدت هذه الملحوظة لبول الذي سألها:
"هل نذهب الى لoo في السيارة، أم تفضلين السير؟"
"دعنا نسير".
"حسنا".

وصب لها القهوة، وتلامست أصابعهما وهو يقدم لها الفئجان. والتقت عيناها وسمعتة يقول:
"تلاشت الظلال من عينيك هذا الصباح يادومني".
وخيل اليها أن هذه الظلال القاتمة استقرت في عينيها، لكنها ما لبثت أن تبينت وهم أفكارها عندما رآته يبتسم في مرج طفولي، ثم يطلق ضحكة قائلا:
"يسرني ان حادثة الأمس لم تصيبك بأذى".
"انني بخير".

ولم تنظر اليه لكنها أحست فجأة بالدماء تتصاعد الى وجنتيها. وسألت:

"هل أنت بخير؟"
"بكل تأكيد يازوجتي العزيزة".
وفتح ذراعيه مثل قط قوي سريع الحركة، ولاحظت

على السترة التي يرتديها علامة بيت أزياء مشهور في اسكتلندا، فسألتها عما اذا كان قد زارها، فأجاب:

"لقد سافرت الى أماكن عديدة، ولكنني أشعر دائما باللهفة للعودة الى أنديلوس. الشمس هناك حارة يادومني، وعليك أن تأخذي حذرك حتى لا يحترق جلدك الانكليزي الرقيق".

وشعرت بخفقان عصبي في قلبها لاشارته الى الجزيرة حيث ينتظرها مستقبل مجهول، وقالت:

"بل سأعرض للشمس قدر الامكان، لاكتسب سمرك نفسها".

وأسند ذقنه الى يديه، وأظهرت ابتسامته مدى جاذبية قمه، وقال مازحا:

"هل تجرؤين على أفساد هذه البشرة البديعة؟ انك ملكي الآن يا سيدة ستيفانوس. ببشرتك البيضاء وكل شيء فيك".
علقت ساخرة:

"بالطبع، اختطفطني كأسييرة، أليس كذلك؟"
واختلج ضوته وهو يسألها:

"هل أنت نادمة يادومني على ليلة الأمس؟ كنت جميلة للغاية ورائعة، لم أستطع أن أتركك. أعرف أنني لست رجلا يسهل اكتشافه او التعامل معه لكنني أعتقد أنه يمكنني أن أسعدك، اذا سمحت لي بذلك".

والتقت عيناها بعينيها. وتذكرت من جديد السعادة المتبادلة غير المتوقعة التي غمرتها ليلة الزفاف، والتي كانت نهاية غريبة ليوم عصيب. وتركته يحتضن يدها، ويلمس خاتم الزواج الذهبي في اصبعها، ثم قالت:
"حدثني أكثر عن الجزيرة".

ولم تسأله من قبل مطلقاً عن وطنه واهله يمثل هذه اللهفة. والآن عرفت ان أخا يصغره مات منذ ثمانية عشر شهرا، وله أيضا أخت غير شقيقة تعيش مع عمته صوفيولا

وابنها نيكوس، في بيت قرب ميناء انديلوس، وعمته تزوجت من ضابط بحري. فالبحار والسفن في دماء كل أفراد أسرة ستيفانوس، ونيكوس كان يستعد ليصبح شريكا في خطوط بول البحرية عندما يبلغ الواحدة والعشرين من عمره.

وبالته عن اسم اخته التي لم تكن تعرف بوجودها، وأخذت تتأمل، مدركة أنها لا تعرف عنه الا القليل. وابتسم قائلاً: "اسمها كارا وهي في السادسة عشرة من عمرها وكثيرة الحركة عفريتة ولكن لطيفة ومرحة كالغزال البري".

"لا أعرف الا القليل عنك وعن أهلك يا بول". واستقرت عيناها على النذبة، واستأنفت قائلة:

"مثلاً، كيف جرت؟"

"أه، هذه قصة طويلة، ربما حكيته لك ذات يوم، ولكن ليس هذا الصباح".

وابتسم وظلت عيناها جامدتين. وبدافع خفي نهضت دومني، ودارت حول المائدة لتقف بجانبه. وأمسك بها في صمت. ثم جذبها وتأمل وجهها بعينه، هذا هو بول: رددت ذلك لنفسها، ودخل يانيس بعدما طرق الباب، وانتظر لحظة واحتقن وجه دومني وهمت بأن تفلت لكنه تمسك بها بدون حرج، بينما كان يانيس يسأل إذا كانا يرغبان استعمال السيارة فينظفها. ولكن بول أخبره أنهما سيتنزهان سيراً على الأقدام حتى مدينة لوى، وسيتناولان غداءهما هناك.

وانحنى يانيس، لكنه لم يستطع أن يحتفظ بجديته المعتادة عندما وقع بصره على دومني بين ذراعي سيده، وقد احتقنت وجنتاها بشدة.

واستطرد يانيس يقول:

"أمر آخر ياسيدي. لم أستطع تنظيف الأريكة، فمياه البحر والرمال أتلفت حريرها الرقيق".

وابتسم بول وهو ينهض واقفاً وقال:

"لا تقلق يا يانيس، ربما تستطيع لينا تدبير غطاء مؤقت للأريكة. وسأعوض أصحاب الفيلا تعويضاً مناسباً. ثم اننا لن تبقى هنا أسبوعاً. لقد اتصلت تليفونيا بالمسؤولين لتغيير موعد الحجز في الطائرة - سنطير الى أثينا صباح غد".

وكان لنظرة الدهشة في عيني يانيس صداها في عيني دومني عندما حدثت في وجه بول وسألت:

"لماذا التغيير؟"

"لنقل أنه الحنين الى وطني وبيتي - لا أستطيع الانتظار طويلاً يازوجتي الصغيرة قبل ان أريك جزيرة أنديلوس".

وربما كان صادقا، لكن دومني بدأت تعرف أنه عندما يكون شارد التعابير، فاما انه قلق، أو أنه يضيق بشيء ما. وأحست هذه المرة بأنه قلق ولهذا الأمر صلة بها.

وبعد نصف ساعة بدأت مسيرتهما الى لوى. كان يومها مشرقاً من أيام الربيع، وأحست دومني وهي الشغوفة دائماً بالحياة في الهواء الطلق، بالتجاوب مع الجو، ومع المناظر الطبيعية، وايضاً مع الرجل الذي كان يسير بجانبها.

شعرت أنها عروس في ذلك اليوم، وغمرتتهما نظرات أعجاب كثيرة وهما يدخلان المدينة، ويتجهان الى المصرف، كانا في طريقهما الى استرداد الشيكات المزورة. وفكرت دومني في تلك المخلوقة الخائفة التي تسلت الى حجرة بول في الليلة السابقة، محاولة العثور على هذه الشيكات واتلافها، حتى تكون حرة في الهرب من ذلك الزوج.

واختلست نحوه نظرة. كانت أشعة الشمس تنعكس فوق شعره الأسود المجمع. وكان يضع نظارة شمس قاتمة على عينيه، إذ كانت عيناها - كما أخبرها - لا ترتاحان الا في الضوء الخافت، وكان يعاني صداً إذا لم يحجبهما عن الشمس من وراء النظارة ظهر ذلك الغريب القامض الذي اقتحم حياتها، وارغمها على الزواج. ذلك الرباط الذي لن ينفصم

الا بموت أحدهما .

وبينما ذهب هو الى المصرف، تفرجت دومني على واجهة محل لبيع التحف . وبدافع خفي دخلت، وسالت عن ثقالة ورق صغيرة من النحاس على شكل حيوان أشبه بحصان له قرن . . . أرادت أن تقدمه لبول . لسبب أنثوي غريب !

وأقبل بول من المصرف، في الوقت الذي خرجت هي من المحل . وهرعت اليه، وشعرها العسلي الكثيف يتطاير . ومدت يدها اليه بالهدية قائلة :

"انظر، هل تروق لك ؟"

وابتسم قائلاً :

"هل كنت تبحثين لنفسك عن لعبة ؟ كم تمنها ؟ سادفعه ."

"لا يمكن، هذه هدية مني، سيبدو النحاس لامعاً جميلاً كعملية جديدة بعد أن افركه ."

"أحقاً تقدمينها لي ؟"

سكتت . ثم استطردت قائلة :

"اعتبرها هدية الزواج، لا يمكنني أن أقدم شيئاً أغلى منها ."

همس بول :

"انها هدية غالية لأنها منك ."

وأعاد النظارة فوق عينيه، فلم تستطع أن تقرأ فيها الاثر، ولكنها أحست من نبرات صوته أنه أحب هديتها الصغيرة .

وتراقصت ابتسامة على شفثيه وقال وهو يمد يده اليها :

"ما هي الشيكات يا دومني، لكن أخشى ألا أستطيع احراقها وسط الطريق ."

"أذن تنتظر حتى نعود للقبلا ."

وخفق قلبها بعنف، كانت تريد اتلاف الشيكات بعيداً عن حياتها الى الابد، لكنها أحست أن من واجبها أن تظهر لبول أنها تثق به .

وصاح هو :

"كلا . . . يجب أن تنتهي من أمرها ."

وتلفت حوله، ورأى سلة المهملات قريبة، وبسرعة مزق الشيكات قطعاً صغيرة، وتطاير بعضها، ولمحت خط دوغلاس عليها، ولمحت أيضاً اسم بول .

وتناولوا طعام الغداء في مطعم قديم، ثم وجدا مكاناً منعزلاً على الشاطئ الرجلي، وتمددت دومني، وتوسدت ذراع بول، وهي تنصت الي هدير الموج، ونبضات قلب زوجها الغامضة . وأحست بالدفع يسري في كيانها . وأيضاً بالراحة، وهي في رفقة هذا الرجل، الذي تساءلت اذا كانت ستحقد عليه، لأنه انتزعها من فردان . . . ومن حياتها الوديعه .

وذاعب شعرها وقال :

"دومني، سأطلب منك أن تعطيني وعداً، وسأتوقع منك الالتزام به ."

وحدقت في وجهه الذي بدا عابساً . وأحست أنه ما زال غريباً عنها . وسألت :

"ما نوع الوعد الذي تريده مني ؟"

"أن تبقى معي، مهما يحدث بين اليوم والغد . عندها نترك انكلترا لنذهب الى اليونان ."

وانتفضت جالسة . . . وازاحت شعرها الى الوراء بعيداً عن عينيه . وتنهدت وسألته في قلق :

"ما الذي يمكن أن يحدث يا بول ؟"

"ربما عدت الى كراهيتي ثانية ."

وأمسكت بذراعه وقالت :

"إنك تخيفني يا بول، لقد كنا سعيدين اليوم . . . هذه السعادة يمكن ان تستمر ."

"من يمكن أن يتنبأ بالمستقبل ؟"

والتقط ثقالة الورق الصغيرة وأخذ ينظفها من الرمال التي علقت بها، ثم عاد الى القول :

"هل تعرفين الى أي شيء يرمز هذا الحيوان الذي يشبه الحصان؟"

وهزت رأسها بالنفي. ولمحت عابسا شاردا فشعرت بأصابع باردة تعصر قلبها مزاجه المفاجيء. من دقائق كان يمانقها فوق الرمال، والآن تعكر مزاجه وبدا مكتئبا، وأعاد النظارة القاتمة الى عينيه، وقال:

"هذا الحيوان يرمز الى أكثر الامور مراوغة في العالم، السعادة الحقيقية. انه مخلوق وهمي، خيالي، وكذلك شأن السعادة: مجرد وهم بالنسبة الى البعض قد يمزقها الألم والكوارث، ولكن ذلك في الحقيقة لا يقضي عليها تماما. وبالنسبة الى البعض الآخر يوجد شق في الاساس منذ البداية، ولذا قد تتداعى أمام أول عقبة. وأساس علاقتنا به شق يادومني وكلانا يعرف ذلك".

وارتجفت لسماع كلماته، بينما استطرد هو يقول واضعا يده فوق يدها:

"يجب أن آخذ منك وعدا بانك ستستمرين معي مهما حدث". وبدا كلامه غامضا، وشعرت انه يكن تحت وطأة الشعور بالذنب. وذاب قلبها ونظراتها تستقر على الندبة التي لم يشأ ان يحدثها عنها وقالت:

"أنت زوجي في السراء والضراء. اننا لا نستطيع أن نحطم رابطة الزواج، وان كنا نستطيع أن نحطم أشياء أخرى".

"أذن فهذا وعد؟"

"انه وعد يابول".

وتنفس الصعداء - ثم أشعل سيكارة وكان لا يزال شاردا، اذ ظل عود التقاب بيده حتى أخرج أصابعه. واستمرت دومني تراقبه، وسرت عندما بدت عليه علامات الارتياح بعد قليل.

فجأة سألته:

"أنت لست يونانيا تماما، أليس كذلك يابول؟"

واستدار في دهشة!
"كيف عرفت؟"

"من عينيك، عندما أستطيع رؤيتهما، وأيضا من تكوينك".
"جذتي انكليزية، ولكن ما دخل تكويني في كوني لست يونانيا مائة في المائة؟ ألم يكن قدما الاغريق طوال القامة؟"

وابتسمت. "واقتربت منه بوجهها قائلة:

"وهل اخترت أن تتزوج انكليزية من أجل جدتك؟"

"ليس تماما لكن في أية حال، للانكليزيات سحر غامض".

"تعني أننا لا نعرض بضاعتنا كلها في واجهة المحل؟"

وضحكت ووجدت أصابعها وأصابعه وسط الرمال، وقال هو يلتهمها بعينيه:

"تماما، الرجل دائما يتوقع منهن غير المتوقع".

"هل عرفت كثيرات من بنات وطني يابول؟"

"تراني أثرت بعض غيرتك؟"

"كلا".

وأطلقت ضحكة عصبية، بينما كان هو يعتصر أصابعها بين أصابعه. واقتربت من صدره، وخبأت فيه وجهها فجلا من الأحاسيس التي استبدت بها انبهارا برجولته. وتمتمت:

"يا لك من متوحش".

وضمها في قوة وقال:

"ان من يوصفون بالمدنية ليسوا كذلك تماما يا أسيرتي، لكن أمارلت أخيفك؟ أمارلت في نظرك الرجل الجامد القاسي؟ لم تكوني بالأمس خائفة عندما ضمتك، وأمتزجت نبضات قلبينا".

همست في حياء:

"لا أستطيع، لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك".

وألقى سيكارتة فاستبدت بها أحاسيس عنيفة، وفي

الوقت نفسه مخيفة وأحست أنها لا تستطيع أن تفهمه أبدا .
أو أن تعرف القوى الخفية التي تحركه، وتجعله يتقلب بين
الرقّة والعنف .

ما الذي كان يريدُه منها؟ الحب؟ ولكن كيف كان لها أن
تخبره بأنها تحبه، وهي نفسها لا تعرف حقيقة مشاعرها
نحوه؟

وعادا إلى الفيلا مع غروب الشمس، وعند دخولهما الصالة،
وقع بصرهما على مظروف أصفر بجانب الهاتف، كانت برقية
باسم دومني . وفتحت المظروف بأصابع مرتجفة، وراقبها بول
وهي تقرأها، وعلى وجهه قناع غامض . وعندما رفعت عينيها
أخيرا، نظرت إليه من رأسه إلى قدميه . أحست كما لو كانت
قد أمضت الثماني عشرة ساعة الأخيرة نائمة تحلم والآن
استيقظت من جديد استيقظت على الكراهية التي لم تقاومها
إلا لفترة محدودة .

وكان بول هو الذي بدأ الكلام، قال:

"هذه البرقية من عمك طبعاً" .

وناولته أياها بدون أن تنطق . وقرأ:

"عرفت بأمر الشيكات من دوغلاس - اتصلت ببول هاتفياً ليلة
أمس . عودي يا عزيزتي" .

وبصوت بارد قالت دومني:

"أذن اتصل بك عمي ليلة أمس؟"

"هذا صحيح يا عزيزتي" .

"رغم علمك بأن دوغلاس أخبر والده بالأمر كله، ورغم ذلك
جئت الي و . . و . ."

"لم أتعهد ذلك يا دومني، واعتقد أنه لا يجوز أن يصيح أحدها
في وجه الآخر في الصالة . . . أمام يانيس وزوجته" .

وأمسك بذراعها ورافقها نحو غرفة الجلوس وأغلق الباب ثم
استده يظهره وقال بهدوء:

"جئت اليك ليلة أمس لأنك صرخت أثناء نومك، وكنت قلقاً
عليك . ولكن . . لو أنك رفضت وجودي لعدت إلى غرفتي . أنك
لم تصديني ولذلك . . . ولا يمكنك أن تنكري أنك نسيت
كراهيتك لي ليلة أمس، وأنك كنت لطيفة معي طوال هذا
اليوم" .

وأطلقت دومني ضحكة متوترة . وتأملته إذ فقد سحره في
عينها وقالت:

"أردت أن تتمتع بلعبتك الجديدة، بملكيتك، وكان لك ما
أردت . أنت قلت ذلك في هذه الغرفة ليلة أمس وكان علي أن
أفي بالتزاماتي الزوجية سواء رغبت في ذلك أم لم أرغب .
ولابد أنك مسرور لأنك نلت ما تريد بدون مقاومة" .

"كلا يا دومني، كلا" .

"لا تلمسني . لا تلمسني والّا أصابني الفتيان من مشاعري
الحمقاء، ومن اعتقادي لفترة انني يمكن أن أتعلق بك، لابد
أنك طوال اليوم كنت تسخر مني . عندما مزقت الشيكات،
عندما تركتك تقبلني فوق الرمال حسناً إذا كان جسمي هو ما
أردت . إذن فلك ما اشتريت، ولكنك بكل مال الدنيا لا يمكن
أن تشتري ثقتي أو حبي وزوجة بدونهما لا تعني شيئاً
يابول" .

وتجمدت تعابير وجهه، وبدا كما لو كان تمثالا من حجر .
وقال:

"احتفظي بحبك لنفسك، هل طالبتك به مرة؟"

"كلا، ليس بالكلمات، ولكن لا أعتقد أنك لست إنساناً حتى
تستمع طويلاً بصحبة زوجة تكرهك . كيف تجرؤ يا بول على
هرماني من حرية الاختيار بين فردان وانديلوس؟"

"اليوناني وحده يستطيع أن يتحدى الأقدار، ولو أنني تركتك
ليلة أمس تتحدثين مع عمك، لهربت إلى فردان، إلى عمك،
هل هذا كل ما تطمعين به في الحياة؟ أن تظلي فتاة تقوم

بكل الاعمال في بيت ليس بيتها ، بيت مرهون حتى آخر جزء فيه*!

فردان بيتي، ووطني، أحب كل حجر فيه، لا أستطيع أن اشعر بذلك بالنسبة الى بيتك.

ولكنك ستعيشين هناك معي.

لأنني أعطيتك وعدا، ولن انكث بوعدتي.

شكرا يادومني.

وتجمدت نظراتها وهي تقول:

لا تشكرني يابول، لأنك ستندم فيما بعد على أنك جئت الى فردان والتقيت بي.

وفتحت الباب، واتجهت الى السلم. كانت تنتفض انفعالا وشعرت بالضعف وهي تصعد الدرجات، واضطرت أن تستند على سياجها، وتنفس الصعداء عندما وصلت الى حجرتها، واستلقت فوق سريرها، ودفنت وجهها في الوسادة لم تستطع البكاء تجمدت الدموع في عينيها. وشعرت بثقل خاتم الزواج في اصبعها أشبه بالقيد الذي يربطها برجل بلا قلب: رجل أرغمها على زواج لا حب فيه تحدث عن الشق الموجود في نسيج علاقتهما وقال ان أول عقبة يمكن أن تحطم هذه العلاقة... كان يعرف أنها لن تغفر له خداعه وسخريته من ثققتها به ليلة الامس.

وسرت رجفة في أعماقها وهي تتذكر الكلمات التي همست له بها:

اترك ذراعيك حولي يابول... ودعني أنام هكذا.

٤ - مرارة الرواسب

حان موعد العشاء، وارتدت دومني ملابسها، برغم رغبتها القوية في أن تغلق عليها غرفتها، ولا ترى بول أبدا. كانت انكليزية حقيقية، وما كانت لتلوذ بركن مظلم تخفي فيه نفسها لمجرد انها جرحت. كان عليها أن تظهر بوجه شجاع لتواجه عدوها ببقايا ما ترك لها من كبرياء.

وأحس بول وهو يتأملها عبر مائدة العشاء، أن الفجوة بينهما لم تكن أبدا على مثل هذا الاتساع. كانت مهيبة. وكانت تنصت اليه، وترد عليه، وهو يخبرها عن أنواع السفن المختلفة التي تملكها شركته، بل انها تكلفت ابتسامة صغيرة عندما سرد عليها بعض نوادره عن الركاب. لكن ألما قائما كان يومض في عينيها الزرقاوين بين الحين والآخر.

وذهبا بعد العشاء الى غرفة الجلوس حيث أعد بول آلة العرض وشاشة عرض عليها مجموعة الأفلام التي صورها بنفسه لرحلاته، اذ كانت هذه هوايته. كانت الافلام مليئة بالمناظر الخلابة، ولكن لم تكن توجد لقطة واحدة يظهر فيها وسط مجموعة أصدقاء، أو حتى رفيقة واحدة. وعندما انتهى العرض، وأضاء النور سألته دومني:

هل تسافر دائما عندما تكون في أجازة؟

وسكب شراباً، وابتسم قليلاً وهو يناولها كأساً وقال:
 "أحب أن أنطلق وحدي، انه شذوذ غير مؤذ أليس كذلك؟ في
 أية حال فاني أصحب يانيس معي كمرافق، لأنني كسول
 للغاية لا أعرف كيف أرتب ملابسي".
 وأخذت تتأمل بهفتور ولا مبالاة. وقالت لنفسها ان رجلاً
 بمثل وسامته لا يمكن أن يقضي أمسياته دائماً وحيداً، حتى لو
 كان ذلك شأنه نهارة. لابد أن نساء أخريات كن في حياته.
 نساء أحسن بجاذبيته، وحاولن ترويضه. ولكن لا ترويض
 لرجل مثله!
 ولما كانت تنسى أفكارها الحزينة أثناء كلامه، قالت
 متعمدة:

"حدثني عن اليونان".

ورفع كأسه لتحيتها، ثم استلقى في مقعده، بينما ألقت
 الأضواء ظلالها على وجهه. وقال:
 "اليونان أرض المتناقضات، أرض الشمس المشرقة، والظلال،
 أرض التسامح والانتقام. بعض الأجزاء قاحلة، والأخرى غنية
 بمحاصيلها من العنب والتين والزيتون والصنوبر. أه الصنوبر.
 انه يملأ المكان برائحته الحلوة".
 وسكت. وحدق بعينه الداكنتين في نار المدفأة. وعاد
 يقول:

"اليونان أرض اما أن تحب، او ان تكره مثل أهلها.
 والأساطير القديمة ما زالت حية في أطلالها، وعندما تشاهدني
 مدينة أثينا الآن من الصعب أن تصدقني أنها منذ أعوام ليست
 عديدة، كانت ممزقة ببشاعة. الأخ كان يقاتل أخاه، والكثير
 من أطفالنا أخذوا عبر الجبال الباردة كقطعان الفقم الى
 البانيا وبلاد أخرى معادية. ما كنت الا طفلة يادومني عندما
 حدث كل ذلك".

وقالت برقة لأنها عرفت مدى حبه لليونان:

"أنت نفسك يابول لم تكن كبيراً".
 قال في ابتسامة جافة - جافة وحزينة - أشبه باوراق
 الخريف عندما تسقط عن الأشجار لتموت على الارض:
 "كنت كبيراً بما فيه الكفاية لأن أرى الكثير. لكني لا أتكلم
 على هذا النحو لاستميتك يادومني، او لأكسب مودتك".
 "بالطبع لا، ليس العطف هو ما تريده يابول، أليس كذلك؟"
 واعتلت ابتسامة شفوية. وقال:
 "أنتساءل اذا كنت تؤمنين بالروابط القدرية. كان من المحتم
 ان نلتقي... فما رأيك؟"

"أرى ان القوى الخفية ليست دائماً رؤوفة بالبشر".

وأصبح الحديث بينهما متقطعاً. وظالت فترات الصمت،
 وصارت كل حركة تنمي احساس كليهما بالتوتر. فعندما بدأت
 النار تحبو في خشب المدفأة، التفت عيناها فوقها. وعندما
 تحركت الستائر، متأثرة بتلك التيارات التي تغزو الغرفة
 عندما تخفت فيها نار المدفأة. التفت عندها مرة أخرى
 عيناها.

وعقدت دومني يديها في حضنها. يجب عليهما أن ينهضا
 الآن، وان يصعدا الى الطابق العلوي. لا يستطيعان البقاء الى
 مالا نهاية في غرفة الجلوس التي بدأت تضيق بوجودهما
 وتحفزهما على الخروج منها.

ثم فجأة بدأت الساعة تدق، وتعلن منتصف الليل، وقفز بول
 واقفا ولمحت دومني الخشونة الجافة التي اكتسى بها وجهه
 وهو يصيح:

"اصعدي الى الطابق العلوي فتن المسك اعرف أنك تشمثرين
 لمجرد رؤيتي".

ونفضت بدورها، ووضعت كأسها جانبا، وكان وجهها خالياً
 من التعبير وهي تقول:
 "تصبح على خير يابول".

ورد عليها التحية باليونانية، وخرجت من الغرفة... رشيقة في ثوبها الأزرق متناقلة قليلا في مشيتها كطفلة صغيرة متعبة. وتتبعها بول بنظراته حتى أغلقت الباب خلفها، وحينئذ تقلصت أصابعه حول الكأس، فانكسر محدثا صوتا، وسالت قطرات المشروب على يديه.

لم تسمعه دومني يدخل غرفته المجاورة الا في وقت متأخر. وتمددت جنونة وهي تفكر "يجب ألا أصرخ الليلة اذا نمت" لكنها في النهاية وقد انهكتها عواطفها الممزقة - نامت نوما عميقا، حتى أيقظتها ليتا حاملة اليها شاي الصباح.

وكان عليهما أن يفادرا المكان في الثامنة والنصف، لكن كان على دومني ان تتحدث مع عمها قبل الرحيل. التحدث اليه الباردة كان مستحيلا، اذ كانت في حالة اضطراب لا تسمح لها بذلك. ولكن هذا الصباح استردت بعض الهدوء، وتيقنت أنها تستطيع أن تبدو مقنعة عندما تقول لعمها أنها متشوقة لرؤية الجزيرة التي ولد فيها زوجها، حيث سيعيشان.

وكان بول يقف في غرفة الجلوس مع يانيس أمام الحقائق، عندما أدارت دومني الرقم الذي يوصلها ببيت طفولتها. كانت تريد ان تطمئن عمها مارتن الى أنه لا حاجة به الى القلق على دوغلاس ودعت الله في صمت أن تستطيع اقناعه بأنها سعيدة في زواجها ببول ستيفانوس.

وأقبل زوجها من غرفة الجلوس بينما كانت في انتظار توصيلها بقردان، ونظرت الى وجهه الطويل الأسمر وهو يصعد السلم، ويمشي في الممر المؤدي الى الجناح الأبيض. تركها تتحدث بحرية ولكنها لم تشعر نحوه بالعرفان، لأنه لم يتصرف بشهامة الا بعدما أملى إرادته.

ولكن الدفء أخذ يسري في صوتها وهي تقول:

"عمي مارتن... كيف حالك أيها العزيز؟"

وتكلمت دومني مع عمها خمس عشرة دقيقة. وقالت

له بحزم انه يجب ألا يقلق بشأن دوغلاس. وان كل شيء أصبح على ما يرام الآن، وانها متأكدة أنه بعد تورطه مع بول لن يعود ثانية الى مأددة القمار. أجل، بول كان مصدر ارهاب، كلا، بالطبع، فهو لم يرهبها هي... يالها من فكرة!

وأطلقت ضحكة، واستطردت تقول بسرعة انها شاهدت بعض الافلام عن اليونان، عرضها بول في البيت، وانها تبدو بكل تأكيد بلادا اثرية رائعة.

وقال عمها بصوت متهدج:

"سأفتقدك يادومني. هل أنت متأكدة أنك سعيدة مع بول؟"

ونظرت الى الجدار الذي يعلو منضدة الهاتف، وقاومت مخاوفها من الحياة التي تنتظرها مع رجل لا يحييها وقالت تطمئن عمها:

"يستطيع أن يكون لطيفا، وهو رجل وحيد للغاية".

وكان بول في تلك اللحظة يهبط السلم، وفهمت من وجهه انه حان الوقت لتودع عمها. ولم تعد تخشى أن يدرك من صوتها انها غير قادرة على حبس دموعها وهي تقول له:

"وداعا... وداعا... سأكتب اليك بمجرد وصولي الى أثينا".

وتردد صدى الكلمات في ذهنها وهي تخرج لركوب سيارة الأجرة مع ليتا ويانيس، ولحق بهم بول بعدما أحكم إغلاق الغيلا. وانطلقت بهم السيارة الى المطار. كانوا سيطيرون الى باريس، ومن هناك يأخذون طائرة أخرى الى أثينا.

بعد الاجراءات المربكة التي تمت بعد وصولهم الى مطار أثينا، ركبوا عربة الى فندق "هيلينيك" الكلاسيكي الذي كان ذا شرفة واسعة تستخدم مطعما ومقاصف للرقص، ومن نوافذ جناحها كان "الأكروبوليس" يظهر على ضو النجوم، وذكر بول أن سحره التاريخي يتجلى في الليل ومع الفجر.

وكان يانيس وزوجته قد أعفيا من واجباتهما، واخذا اجازة، وكان عليهما ان يتوجها بعد ثلاثة أسابيع الى

جزيرة "أنديلوس" قبيل وصول بول وعروسه إليها بأسبوع .
وشعرت دومني بالتوتر لوجودها وحدها مع بول : عروس
غريبة في أرض غريبة . ولكن لم يكن في المستطاع تجنب
ذلك ، وكان عليها أن تعتاد زوجها عاجلا أو آجلا .

كانت متعبة بعد الرحلة الطويلة ، لذلك تناولت الطعام ذلك
المساء مع بول في حجرة الاستقبال في جناحها ، وعندما
تمنى لها نوما هنيئا انحنى برأسه الداكن ، وطبع قبلة على
وجنتها ، وفي الحال استدار مبتعدا وهو يبدو قاترا . الا انها
لم تستطع ان تتجاهل الرغبة التي اكتسحتها .

وتسللت أشعة شمس اليونان الذهبية من خلال نوافذ غرفتها
صباح اليوم التالي ، وايقظتها من نومها .
وتناولوا افطارا مكونا من عصير الفواكه ، والكريما والفصل
وفطائر السمسم . بعد ذلك أكلا التين العنبري اللون ، وشربا
القهوة اليونانية . وهمست دومني :
" انها لذيذة " .

واستقرت عيناها في سرور على أزهار الليمون وسط أوراقها
اللامعة التي كانت تحيط بسور الشرفة .
وقال لها بول محذرا :

" لا تشربي رواسب القهوة " .
تلاعبت بالفنجان الصغير وهي تفكر بان مرارة الرواسب
شأن اشياء أخرى كثيرة تبدو حلوة ثم تترك مرارة في
نهايتها .

وسأل بول وهو يعتدل في مقعده ويشعل سيجارة .
" ماذا سنفعل هذا الصباح ؟ "

لم تستطع ان تتجنب النظر اليه . كان شعره بريق أخاذ
تحت أشعة الشمس ، وكان يرتدي قميصا قصير الأكمام ،
وينطلونا ضيقا . وحلقات الاذان تتصاعد أمام عينيها
الذهبيتين ، فتضيقان ، وتشتع نظرة نمر مغترس :

وقالت دومني :

" جولة لمشاهدة الآثار ستكون شيئا لطيفا " .

" اذن سأخذك الى بلاكا المنطقة القديمة في أثينا " .

وانفجرت شفتاه عن ابتسامة كشفت بياض أسنانه .

واستطرد يقول :

" أليس صندلا لأن الطرق الحجرية قديمة ومتآكلة ، وبعد أن

تلقى نظرة على المحلات التجارية ، ربما تريدان مشاهدة

الأكروبوليس " .

" بكل تأكيد " .

ولمحت قلادة يونانية تلمع خلال فتحة قميصه ذكرتها هذه

القلادة الملتصقة بصدرة بما كانت تحاول جاهدة ان تنساه ،

احساسها بها في الظلام تلك الليلة الاولى . . .

ونفضت بسرعة ، وقالت :

" يجب أن اذهب لامشط شعري ، واضع احمر الشفاه " .

واستدارت وذهبت الى غرفتها . وتجنبت النظر في عينيها

في المرأة . وارتجفت يدها وهي تضع احمر الشفاه ، وكان

عليها أن تمسحه ، وأن تعيد طلاء شفتيها باللون الوردي .

وحددت دومني في قمها ذي الشفة العليا الرقيقة الحساسة

والشفة السفلى السخية الممتلئة . وأخست انه تمزق عندما

استسلم بصمت لفمه الذي قال لها بفتور :

" احتفظي بحبك . . . هل طلبته منك مرة ؟ "

وأشاحت بوجهها بسرعة ، ووضعت الصندل في قدميها ، ثم

أخذت حقيبة يدها ، وألقت نظرة أخيرة على صورتها . كانت

رقيقة ورشيقة . ولم تتزين الا بخاتمين : الدبلة الذهبية

البسيطة . والخاتم الفيروزي الذي كانت زرقته تضاهي زرقه

عينيها .

دومني ستيفانوس : ابتسمت للفكرة وان ارتجفت لغرابة

الاسم . دومني دان ذهبت الى الابد ، تاركة فقط

الكيان والوجه اللذين دفعا رجلا الى طرق ملتوية ليفوز بامتلاكهما . . . وابتعدت عن المرأة، ولحقت بزوجها لزيارة بلاكا والاكروبوليس.

وكانت شوارع البلاكا مهملة وضيقة، ومليئة بمحلات مفتحة الابواب كالسوق وبيوت ذات شرفات خشبية . . .

وشعرت دومني بأصابع بول الدافئة على مرفقها وهو يشير الى الثوم والقليل الأسود في واجهة محل بقالة، والاحذية الشممية القديمة خارج محل احذية، سلال الفاكهة الجميلة، وكان هناك بائع اسفنج يحمل مجموعة أشبه بالبالونات الملونة، وبائع بطيخ يجر عربة خشبية كارتو. واشترى بول شرائح من البطيخ، وبعدما أكلت دومني قطعها تلاشى احمر الشفاه مع المصير، وبدت كمراهقة في اجازة وهي تحمق حولها في الناس الذين امتلأت بهم الشوارع الصاخبة الزاهية. وضحكت من فوق كتفها لبول وقالت:

"انه مثل زقاق اعرفه في بلادنا، بائع الاسفنج سيختفي اذا دهمته الرياح".

وابتسم، واقترب منها قليلا، وقال:

"هل أنت سعيدة؟"

وأومأت برأسها . ذلك أن البلاكا كانت ذات سحر لا يقاوم. وأمسك بول بأصابعها المبللة بماء البطيخ، وضعها معا السلالم غير المستوية، ومارا أمام المقاهي القديمة حيث جلس الشيوخ أمام أكواب القهوة التركية. يمضغون الكلمات اليونانية، فيبدون كما لو كانوا يتشاجرون.

ورأت دومني اليونانيات ذوات الأجسام الضخمة بصحبة بناتهن الرشيفات. ولاحظت أن شبانا عديدين كانوا على الكثير من الوسامة بشنبهم الاسود وكثيرون بالملابس العسكرية. وأخبرها بول ان الخدمة العسكرية اجبارية. وعندما نظرت اليه لمحت ظلالا تتحرك على صفحة وجهه،

ثم نظر جانبا الى أحد المحلات، ولم تستطع أن ترى عينيه وكانت نظارته الشمسية في جيب قميصه. لأنه لم يكن بحاجة اليها في ذلك المكان حيث اختفت الشمس وراء سطوح المنازل.

ووقف أمام واجهة محل صغير يعرض بعض المصنوعات اليدوية الوطنية. احذية مطرزة، وحقائب يد، وشرائط حريرية من الخرز المانع للقلق وكذلك من المشايك والاقراط. وقال بول وهو ينحني فوق المعروضات:

"دعيني أشتري لك تذكارا لزيارتك بلاكا".

وخرج من المحل رجل معمم، ووقف يرقب بول وهو ينتقي قرطا على شكل قلب. وسأل الرجل عن الثمن، ودفعه له، ثم جذب دومني، وعلق القلبين المزرقاوين الصغيرين في اذنيها. وهتفت:

"القرط رائع يا بول، يجعلني أشعر كما كنت من جوارى الحريم".

ولكن بول لم يبتسم. وأمسك بها فجأة من خصرها، ورفع ذقنها بيده الأخرى وبدأ فمه في مثل عنف ذراعه. وحدق بعينيه الذهبيتين في عينيها، وقال في صوت خافت، أجش.

"هل هذا ما تشعرين به؟ مثل جوارى الحريم. اللواتي كن يشترين بالمجوهرات؟"

ونظرت اليه مغلوبة على أمرها. وقالت مرتبكة:

"لم أقصد ذلك، كنت أمزح".

"الاشعور أحيانا يدفعنا الى نطق كلمات نعتقد أننا لم نكن نعيها".

ثم حررها من قبضته، وأكمل مسيرتهما الى الاكروبوليس في صمت. . . وشعرت دومني بالرغبة في البكاء. . . جوارى الحريم! انزلت الكلمات من فمها لتفسد عليه بهجته بشراء هدية صغيرة لها.

ووقفت دومني وهي تشعر بضآلتها وسط الأعمدة الشامخة تنظر اعلى فأعلى وتستشعر تناسق هذه الأعمدة وعظمتها وهي أشبه بالاصابع تشير نحو السماء .

وأخذها بول الى دهليز العذارى حيث صوّب السياح آلات التصوير، وأخذوا يلمسون التماثيل التي بدت كأنها تتحرك - وأراها شجرة الزيتون القديمة التي ما زالت موجودة، رمزا للأمل .

وتسمرت نظراتها عليه وهو واقف على السلم الكبير وقد أغرقته الشمس بأشعتها الذهبية . ولحمت من جديد على وجهه ذلك التعبير، كما لو كانت ذكرى متوحشة داهمته وهو يتأمل عاصمة اليونان القديمة .

وكان بول يحمل معه آلة تصوير، فالتقط لها عدة صور وهي متكئة على عمود إستر . وقال في ابتسامة ساخرة .

"ستوقع كارا ان تحمل معنا مجموعة من صور شهر العسل" .

"اذن لابد ان نأخذ صوراً معاً، لنسعد كارا" .

وبمساعدة أحد السياح الأمريكيين وقفوا جنباً الى جنب، وبدأ هو يستعد لالتقاط عدة صور لهما . وقال الأمريكي وهو يداعبهما بلهجة المرحّة:

"أعرف أنكم معشر اليونانيين تتحفظون أمام الآخرين، ولكن وضع ذراعك حول السيدة سيبدو لطيفاً" .

ورمق بول دومني بنظرة متهمكة ثم أحاط خصرها الدقيق بذراعه، وجذبها الى جانبه . وكانت ابتسامتها أمام آلة التصوير متوترة كجسمها . وشعرت بأصابعه تفوّص في خصرها وتؤلّمها . ثم انتهى التصوير . وتركها متجها الى السائح الأمريكي الذي قال له:

"ستظهر صور زوجتك رائعة، تماماً مثل واحدة من بنات الاغريق" .

وابتسم بول للسائح شاكرًا وهو يسترد آلة التصوير،

فرد الأمريكي العفو باليونانية وهو مفتبط بنفسه لانه تمكن من معرفة هذا القدر من اليونانية .

ثم ألقى بول نظرة الى ساعة معصمه وقال لزوجته:

"لا بد أنك جائعة، هل نأكل في أحد المطاعم هنا، أم تفضلين ان نعود الى الفندق؟"

وجزعت من فكرة العودة الى الفندق، ليس بعدا المطعم قد يكون صاخبا، مكتظا بالغرباء الذين تستطيع أن تنسى بينهم نفسها ساعة أخرى على الأقل . وقالت بسرعة:

"أحب أن أكل هنا في أحد المطاعم طعاما يونانيا" .

وهبطا السلم المفطى بالحشائش، وتنبهت الى ان الناس ينظرون اليهما . ينظرون الى اليوناني الطويل الوسيم، وعروسه الانكليزية . تماما كما حدث في كورنوال ذلك اليوم حين ذهبا الى لولو لاسترجاع الشيكات . ولكن في ذلك اليوم شعرت دومني بفوران جميل يسري في شرايينها، اما الآن فالفوران ما زال موجودا لكنه لم يعد جميلا .

٥ - نافذة القلب

كانا في طريقهما الى مطعم تقدم فيه اللحوم المشوية الى جانب السمك، عندما نادى أحدهم بول، ووجدنا نفسيهما محاطين بعدد من الاشخاص المرحين: زميلان من زملاء بول، بصحبة زوجتيهما. وكانتا سيدتين باهرتي الاناقة، ترتديان الملابس الحريرية، وتضعان على رأسيهما قبعتين بورود، وتمسكان باصابع مكسوة بالقفازات، حقيقتين محاليتين، تفحصتا بعيون سوداء ملابس دومني العادية، ولاح أنهما صدمتا لأن زوجة رجل أعمال هام تبدو في ملابس بسيطة أشبه بملابس السائحات.

لكن الزوجين في الجانب الآخر، ابتسما لدومني في سرور واضح، والحا أن تنضم هي وبول الى جماعتهم لتناول طعام الغداء.

وأشار بول الى المطعم وراء صاحبه مباشرة وسأله بالانكليزية لان دومني لم تكن تفهم اليونانية جيدا بعد: "هل تنوي تناول الغداء هنا يا كوستس؟"

وأجاب كوستس في الحال بالانكليزية ذات لكنة، ان هذا المكان مشهور بتقديم الأطعمة اليونانية، وأنهم سيتناولون فيه غذاءهم. وأوما الى زوجته مؤكداً انتصار رغبته ذلك

أنها كانت تتمنى الذهاب الى مكان أكثر فخامة. والطعام فيه أجمل منظراً، مع انه بلا نكهة.

وقالت انجيليكا لدومني وهما تتبعان الرجال داخل المطعم: "استغرق كوستس وقتاً طويلاً حتى بات جرموقاً. سنوات طويلة ارتديت بصبر الملابس الرخيصة. والآن اذ أصبحت أملك الملابس الأنيقة التي يسعدني الظهور بها، يأخذني للطعام في مكان شعبي متواضع، تفهمين طبعاً، اليوناني يجب أن يكون السيد".

وابتسمت دومني، فهمت جيداً شيئاً واحداً فقط: أن بول يتوقع منها أن تظهر أمام أصحابه المروس المشرقة. وكان من الصعب عليها أن تعترف لنفسها أنها لا تجرؤ على معارضة رغباته. كانت له كبرياؤه. وما هو كبرياؤها بالمقارنة؟ وتتبعته بعينيها. وكان المطعم مكاناً يمكن أن يأسر دومني في أي وقت آخر، بصحبة أناس أقل فضولاً وصخباً. المقاعد حول المائدة المتواضعة من الخيزران والجدران بيضاء تتدلى منها آلات الموسيقى الفولكلورية الشبيهة بالقرع العسلي. ومن كل الأرجاء ارتفعت أصوات المناقشات باليونانية وسط ضباب الشواء.

واضطحب بول دومني لتختار لنفسها الحساء والخضروات واللحم. واختارت السيدتان الاخريان عصافير مشوية. وفزعتهما دومني لذلك في سرها. ما كانت لتأكل هذه الطيور الصغيرة لو أن بول أمرها بذلك. وهو لم يفعل بطبيعة الحال، ولمحت ابتسامة على شفثيه عندما طلبت شرائح من اللحم المشوي. ورغبت أيضاً ببعض البطاطس المحمرة، وفي الحال طلب بول ان تكون طازجة، وعندما عادا الى المائدة، كان كوستس يطلب شراباً يونانياً أبيض، وقال بول لدومني:

"لن يجيبك هذا الشراب".

وطلب مشروباً آخر مع السمك المدخن الذي قررا هو

ودومني أن يتناولاه بدلا من الحساء . وانهمكت انجيليكا وميرها في الطعام بشهية، وابتسم كوستس وهو يرفع كأسه لدومني عبر المائدة . وقال كلمة باليونانية فهمتها في الحال . كانت تعني "كوني سعيدة" وابتسمت لليوناني اللطيف وتمنت لو لم تنطق عيناها بان السعادة لم تعد أكثر من مجرد كلمة بالنسبة اليها . ذكرى لحريتها في الاستمتاع بحياتها في سلام في مدينتها فردان . بحماية عمها الطيب .

ثم خفق قلبها بعنف حينما سألتها انجيليكا بصوت مرتفع سمعه كل الجالسين حول المائدة عن عدد الأطفال الذين تتمنى أن ترزق بهم . وحدقت دومني في صحن محلو بالزيتون الاسود ذي اللبنة البنفسجية . أطفال من بول

واختلست نحوه نظرة جانبية قبل أن تواجه انجيليكا بابتسامة . وتمتم بإجابة مبهمه . وتبادلت اليونانيتان ابتسامات المعرفة . اذ اعتقدتا أنها خجول لأنها انكليزية، وسرعان ما حولتا دفعة الحديث الى مسرحيات الموسم .

وقالت ميرها موجّهة كلامها لدومني:

"يجب أن تقنعي بول بأن يأخذك الى المسرح . وأحذرك لأن المقاعد من حجارة، ولكنني أخذ معي دائما وسادة . في الموسم الفائت شاهدنا مسرحية "الليكترا" وكانت رائعة" .

وتنفست دومني الصعداء اذ استطاعت أن تتفرغ لطعامها وهي تصغي الى وصف ميرها للمسرحية . وبينما كانت تأكل البوظة اللذيذة، لاحظت الابتسامة التي تعلقت بطرف شفتي بول وهو جالس يستمتع باحتساء القهوة التركية، وتدخين السيكارة الرفيع . لعبت دورها بما يرضيه . وارتباكها بشأن الانجاب، فسر على أنه بسبب الحياء . ويدون شك أنه سر أيضا لتجاهلها نظرات الاعجاب بشعرها الذهبي ولون بشرتها الأبيض، من الرجال الجالسين على موائد قريبة .

وعندما انصرف بول ودومني للعودة الى فندقهما،

كانا يحملان معهما دعوة الى بيت ميرها يوم الجمعة، وأخرى الى بيت انجيليكا مساء الأحد .

وقال لها بول في المصعد المتجه الى جناحهما في فندق هيلينيك:

"أحبوك! وقال لي كوستس أنه لم ير أبدا من قبل عيني كعينيك في مثل زرقة بحر اليونان" .

ورفعت دومني هاتين العينين الزرقاوين الى وجه زوجها الاسمر، وردت بأدب أنها هي أيضا أحببت أصدقاءه .

وفجأة أمسك بها من كتفها . فجعلها تحس بدفع يديه وعنفهما من خلال قماش البلوزة . وقال:

"لا تتحفظي معي نادني بالقرصان اليوناني، اصغعي وجهي . ولكن لا تكوني دائما مؤدبة" .

قالت بجفاء:

"سأعلم، امهلني يا بول، امنحني وقتا" .

قال معقبا:

"الوقت طريقة للهرب" .

ووصلا الى باب جناحهما، ودفع المفتاح في القفل بشيء من العنف . وخفق قلبها، اذ أدركت في تلك اللحظة أنه لن يظل بعيدا عنها مدة طويلة . كانت له رغبات الرجل القوي العاطفي، وقد تعلمت أنه يمكن أن يكون بلا رحمة .

وفي اليوم التالي بدا جناحهما أشبه بمحل ازهار عندما انتشر خبر وجود بول ستيفانوس في أثينا، وأنه جاء معه بعروس انكليزية . فاستمر وصول سلال الازهار، وعلب الفواكه والحلوى . وايضا هدايا العرس للسيدة ستيفانوس الشابة . ولم تكن دومني سوى انسانة . لذلك لم تستطع أن تقاوم حب الازهار، وتذوق الحلوى والفستق والعنب الذهبي ولكنها دهشت للهدايا الأخرى من زجاجيات الشراب، والملاعق الصغيرة الفضية، والاطباق المزخرفة، وشرح لها بول

تقاليد اليونانيين في الترحيب بضيوفهم بتقديم الحلوى او المنعشات في هذه الأواني.

وابتسمت دومني واستدارت في الحال لتدفن وجهها في باقة من زهور البنفسج وقالت:

"أحب البنفسج".

وصمت بول، واتجه ناحية باب الشرفة ليضعل سيكارا. واختلست نظرة نحو كتفيه العريضين، ورأسه الداكن، وأنباها شعور خفي بأن أزهار البنفسج مهداة منه. وأحست بضرورة شكره، لكن الكلمات لم تسعفها. كيف عرف انها أزهارها المفضلة؟ وهي لم تتحدث معه أبدا عن مثل هذه الاشياء، وهو لم يرها أبدا في غابات فردان منحنية فوق حوض البنفسج في الربيع لكنه من يدري...

وفي الليلة السابقة لرحيلهما الى إنديلوس حضرا حفلة راقصة في يخت في ميناء أثينا. كان المركب الكبير مزينا بالأنوار الملونة، وكانت حلبة الرقص على السطح، تحت النجوم وفرقة موسيقية صغيرة تعزف الألحان.

ارتدت دومني ذلك المساء ثوبا من الشيفون اليوناني ذي الزرقة الباهتة المبطن بالحرير، وعقمت شعرها الى أعلى وعلقت بالشينيون العسلي الناعم أزهار البنفسج الرقيقة. وقبل أن تخرج مع بول الى الحفلة، لف حول ذراعها أسوارة فضية ذات مشبك من حجر ثمين نادر لونه بنفسجي. وتحسست الاسوارة بأصابعها. كانت أشبه بقيد العبودية.

أما بول فقال:

"ازددت جمالا في اليونان، شمسننا أدفات بشرتك وجعلتها بلون العسل، أخبريني، ألا استحق قبلة على هديتي؟"

ورفعت وجهها أشبه بفتاة صغيرة مطيعة، وضحك هو بنعومة وقال مازحا:

"انك تخافين اليوناني عندما يقدم الهدايا اليس كذلك؟"

تري ما الذي أخفيه؟

ونظرت في عينيهِ النحاسيتين، فالعينان كما يقال نافذة القلب. وكان كل ما رآته ابتسامة غامضة، وانعكاس صورتها في مقلتيه، كانت له عينان نفاذتان. ومثل كل شيء آخر فيه، كانتا جميلتين ومتوحشتين. ولو لم يكن الزوج الذي كانت تخافه، لكان حتما أن تعجب به في سكرة السهرة البيضاء التي ارتداها فوق قميص حريري أبيض مع رباط عنق داكن، هكذا فكرت دومني، وهما يخرجان معا من جناحهما كأي زوجين سعيدين في طريقهما الى سهرة مريحة.

وكانت دومني تحب الرقص. تعلمته في المدرسة الداخلية وكانت تخرج بصحبة باري للرقص مرات عدة. طرأ باري على بالها حينما شعرت بضيق يد بول وهما يرقصان في صمت على ظهر اليخت الساحر. كانت تتبادل مع باري طوال الوقت الههسات والضحكات، وهما يرقصان في نادي الشاطئ حيث كانا يلتقيان عندما كانت تنسل من المدرسة بعد الظلام بمساعدة زميلة لها وكان ذلك سرهما الساحر "الرومانتيكي" منذ البداية.

"انك تجيدين الرقص لم تكن لدي فكرة أنكم تقيمون حفلات كثيرة في فردان".

"لم تكن لدينا الأموال الكافية لذلك. تعلمت في المدرسة الداخلية".

"ولكنك تبدين معتادة على مراقبة رجل أكثر من مراقبة فتاة. وقد لاحظت ذلك من قبل".

وكانت في لهجته رنة فضول. وخفق قلبها خفقة لا يستطيع غيره أن يحركها. كأنه تيار كهربائي يسري من كيانه الى كيانه. وقالت:

"نسيت أن لي ابن عم. فعندما كان دوغلاس يعود الى البيت، كنا كثيرا ما نرقص في الصالة على أنغام الغرامفون القديم".

٥٦ ٠٠ آه ٠٠ دوغلاس ٠٠ اعتقد أنك كنت تهتمين كثيرا بهذا الشاب ٠

وسكنت الموسيقى، ووضع أحدهم في يدها كأسا من الشراب اليوناني، وخلال الساعات التالية رقصت دومني مع رجال آخرين، بينما أختفى بول. وقال لها أمريكي شاب: "بعض اليونانيين يلعبون الورق في إحدى الحجرات في الداخل. انهم يحبون لعب الورق".

كان ذهنها شاردًا وهي تفكر في ابن عمها. وتتابع أفكارها: هل حقًا يعتقد بول أنها تزوجته لاهتمامها بدوغلاس بأكثر من مجرد علاقة القرابة؟ يا للعراقة. وبالألحاذقة المخيفة من جانبه لظنه أنها لابد أن تكون رقصت كثيرا مع رجل كانت تهتم به!

كانت تهتم به! هل يعني ذلك أن حب باري لم يترك قلبها أبدا؟ ياله من حب يائس وهي التي لم تكن لديها أية فكرة عن مكانه لكنها تعرف أنهما لو التقيا من جديد، فلا بد وأن يكونا كغريبين لأنها لم تعد دومني دان.

وضاقت دومني بالرقص ولمحت سلمات ضيقا، سلكته لتجد نفسها فوق سطح آخر لليخت. وقفت وهيدة أمام السور. وداعبت نسمة شعرها ووجنتيها. وانعكس ضوء القمر فوق سطح البحر، وألقى ظلاله على ساريات المراكب الأخرى الراسية. وقلوعها وأحست أن في صوت مدير المياه حزنا له صدى في أعماقها. ورفعت عينيها نحو النجوم. وتساءلت عن مستقبلها مع بول وارتجفت عندما لمحت نيزكا يفر في الفضاء. بينما ارتفع في هذه اللحظة صوت عميق يقول: "تبددين بعيدة مثل هذه النجوم يا دومني".

أقبل بول في خطواته الصامتة، ووقف وراءها ولم تلتفت دومني وأحست بأنفاسه تداعب شعرها، بينما استقرت يدها في قوة ودفع على كتفيها. وظلت في مكانها بلا حراك

قلبها فقط ينبض وشفتها السفلى تهتز في عصبية. وهمس بول:

"أنت تحبين الاستمتاع بالوحدة بين الحين والآخر. أليس كذلك؟"

وأومات برأسها. فعاد يقول بصوت هادي ٠٠

"ستحبين الجزيرة يادومني، انها مكان لمن يعشقون الحرية والطبيعة البكر. اصفي الى البحر، انه يترنم بأغنية عذبة". سألته:

"هل تسمع البحر من بيتك؟"

"من بيتنا يادومني".

ورفع يديه عنها، واستند على سور السطح وعندما نظرت اليه كانت عيناه تبرقان وتتحركان كعيني قطرة في الليل. وكان شعره مجعدا. كان يشرب ويلعب الورق. وأحست بتقلص عصبي في حلقها لما لمحته فيه من الاستهتار. وقال بسخرية: لماذا تخافين مني يا صغيرتي الى هذا الحد؟ أجابته:

"أليس من الطبيعي أن نخاف ما لا نفهم؟"

وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يقول:

"صحيح اننا معشر اليونانيين لا يسهل فهمنا أبدا. أغلب ما نحس به غامض. لكنه في أي حال اما النار في البركان او الجليد تحت البحر ولكن الشيء نفسه يمكن أن يقال عن الانكليز. أنت يادومني وأنت واقفة هنا هل تعتقدين أنني لا أجذب لغزا؟ دومني الفتاة ذات الاسم النادر الجميل الذي يناسب شخصيتها. دومني ٠٠ التي ستحصل على انتقامها عندما أبرهن أنني شيطان اذ أخذ ما لن تعطيني اياه".

ورفع رأسه الى السماء، وضحك في وجه القمر. وهمت بأن تبعد عنه، ولكنه بسرعة ودهاء مثل النمر، قيد معصميهما بيد واحدة، ورفع وجهها باليد الأخرى، وقال وعيناه تشعان

بريقا ذهبيا:

"يا عاصفتي الصغيرة، أجل، سأحصل على ما أريد" وهرولت بعيدا عنه. وهبطت السلم لتعود وسط الساهرين.

جلسا في العربة التي أقلتتهما الى الفندق متباعدين. لم تنظر اليه في المصعد. وهي واقفة ببرود في ثوبها اليوناني. وقد تجمدت عيناها كحجر الفيروز في يدها اليسرى. تبادلنا في غرفة الاستقبال تحية المساء، ثم دخلت دومني غرفتها، وأغلقت الباب بصوت مسموع. وهمت بأن تغلقه بالمفتاح، لكنها تراجعت. فأغلق الباب سيكون اعلانا صريحا عن الخوف الذي في قلبها. وهي لا تريد أن تمنح بول هذه السعادة.

كان ذهن دومني مشغولا. فاستسلمت لنوم قلق مليء بالأحلام المضطربة غير أنها لم تستطع أن تتبين ما دارت حوله أحلامها، ونهضت فجأة لتجد وجهها غارقا في الدموع. وجلست في سريرها تتحسس دموعها. حينئذ لمحت من خلال نوافذ غرفة نومها السنة لهب أحمر ترتفع وتسارع خفقات قلبها، ورفعت الأعطية عنها، وهرولت لترى مصدر هذا اللهب.

وفتحت باب الشرفة، ووقفت في الخارج بقميص نومها، تحديق في اتجاه مصدر اللهب. كانت منبعثة من الميناء. وسمعت أصوات نغير عربات الاطفاء لكنها لم تنقبه الى صوت بابها وهو يفتح ليأتي بول ويلحق بها الى الشرفة. وسأله في قلق:

"هل يمكن أن تكون النار مشتعلة في يخت "الساحرة الفضية"؟ يا للخسارة إذا كانت هي. انه مركب جميل! أرجو أن يكون أصحابك قد خرجوا بأمان."

واقترب من سور الشرفة، وأطال النظر ناحية الميناء، كما لو كان يقدر مكان وجود يخت أصحابه بالضبط. وصاح:
"كلا. انها ليست "الساحرة الفضية". فهي راسية في مكان

أبعد. اللهب شديد جدا فالأغلب أن تكون هذه سفينة شحن". كانت السنة اللهب تلقي ظلالها الحمراء عليهما وبدا وهو مقبل على دومني في بيجامته السوداء الحريرية. يقامته الطويلة أشبه بالشيطان وتمتم شيئا باليونانية، حينما كانت هي تتراجع في اتجاه غرفتها وألقت صرخة صغيرة عندما تبعها، وأغلق باب الشرفة وقالت وهي كارهة لرجفة صوتها:
"أنا... أنا سعيدة لأن النار ليست في "الساحرة الفضية"."

ولم يرد. وأرغمت نفسها على أن تنظر اليه. واقفا يتأملها في قميص نومها فجعلتها نظراته تحس كما لو كانت عارية وقال:

"أتهمني ذات مرة أنني اشتريتك يادومني. هل تعتقدين ذلك حقا؟"

وابتلعت ريقها بصعوبة. وأحست اضطراب قلبها. وقالت بانفعال كأن شيطانا يدفعها الى ذلك:

"هل تعتقد يابول أن هذا هو الوقت لتجمع الفوائد عن تمزيقك تلك الشيكات؟"

فالتقط أنفاسه، ثم تحرك خطوة مقتربا وأطلق ضحكة متوحشة وقال:

"نعم يا عزيزتي، الوقت حان لأن تكفي عن لعب دور الزهرة المنكمشة. ضقت ذرعا بذلك، خاصة وأنا أعلم ان لجمالك البارد وكبريائك وجها آخر."

صاحت برغم الذعر المستبد بها:

"تريد أن تذلل كبريائي، اليس هذا صحيحا يابول؟"
وتسمرت في مكانها، وبحركة سريعة خاطفة مأكرة، أخذها بين ذراعيه وقاومت بعنف لتتخلص منه وانطلقت تردد:

"دعني يابول."

ووصلت أصابعها الى مكان الندبة والى شمره المجعد... وعادت تقول:

"أنا، أنا سأكرهك".

قال ونظرة تملك في عينيه:

"لم تكرهيني منذ البداية يا عاصفتي الصغيرة؟"

وحملها بين ذراعيه وأغلق الباب خلفهما. كانت كتفاه المريضان أشبه بجناحين يحتويانها وهو يضعها فوق السرير. واستيقظت دومني قبيل الفجر وبحرص شديد انسحبت وفزعت عندما تمتد شيئاً في نومه، واهتز قليلاً، لكنه عاد فاستغرق في النوم، وابتعدت دومني كما لو كانت تهرب من نمر.

وعندما وصلت إلى غرفتها وضعت أزارها فوق كتفها، وجلست بجانب النافذة. تراقب أصابع الفجر الوردية. كان المنظر رائعاً لكنها شاهدته بخسرة.

٦ - البيت وقمة الصخرة

لم تنس دومني أبدا لحظة وقع بصرها على أنديلوس، التي كانا في طريقهما إليها في مركب بول، مع بحار شاب من سكان الجزيرة يمسك بدفة القيادة، وآخر يقوم على خدمتهما. ظهرت الجزيرة فجأة وسط البحر الأيوني الأزرق. واضحة تماماً وسط أضواء بلاد اليونان الصافية. وأمست دومني السور بيديها حيث وقفت. كانت أنديلوس محتلة في الماضي من الإيطاليين والرومان.

وكان اليونانيون يتحركون بسرعة لتنفيذ أوامر بول. ولا شك أن كل سكان الجزيرة يحترمون، بل ويحيون لأنه بنى لهم مستشفى، ومدرسة لابنائهم فيها حمام سباحة وملعب ومكتبة. ولم يكن بول هو الذي أخبرها بذلك لكن أنجيليكا وميرها كانتا مصدر هذه المعلومات.

ووقف بول بجانبها متكئاً على السور، قميصه الأبيض مفتوح، ونظارة الشمس تخفي عينيه، وشعره الأسود ازدادت تجعداته بتأثير هواء البحر لكن دومني كانت تشعر بهزة في أعصابها فما تزال تحت تأثير ما حدث منذ ثلاث ليال. فائتاء تلك الأيام في البحر، احتاجت لكل شجاعته لتعامل معه بصورة طبيعية.

وقال بول:

"اننا نقرب من الجزيرة. هل أنت مشتاقة لرؤية بيتك الجديد؟"

كان يعرف جيدا ما في قلبها. انه الشوق للحرية شوق طيور البحر وهي تنطلق مع الرياح.

وأجابت:

"أتخيل بيتك فوق قمة "صخرة النسر" بيتا ذا شأن. هل عاشت فيه أسرتك منذ سنين عديدة؟"

ونفث بول دخان سيكاره وقال:

"بناه جدي، هو وأخوه "لوكاس" مؤسسا شركة خطوط ستيفانوس للملاحة. وأثناء حركة التمرد تعرض العمل لهزات خطيرة، شأن كل شيء في اليونان، لكننا بمرور الوقت تغلبنا على العقبات، وسارت الأمور على ما يرام."

وظل صامتا دقيقة أو أكثر، وبطرف عينيه لمححته يتطلع نحو الجزيرة المقتربة عابسا. ثم استطرد:

"البيت الذي سأخذك إليه، ليست له جذور عميقة في الماضي مثل فردان. ولكن يمكنك أن تقولني عنه أنه الرمز الشامخ للانتصار على الطبيعة الوعرة. ان ارض اليونان غالبا ما تكون قاحلة، والحياة صعبة بالنسبة للكثيرين من ابناء وطني."

قالت لمجرد الثرثرة:

"ولكن عشيرة ستيفانوس حققت النصر."

وأحست بنظراته الفولاذية وهو يقول:

"حققناه بالعمل الجاد. لم يحدث أن تورط أحدا في البرقة."

وبنغمة ذات مغزى قالت وهي تشعر بشيء من الزهو لقدرتها على ان تلقي سهامها مثله:

"لا أبدأ يابول؟"

وتأملت أمواج المحيط المتلاطمة بلا نهاية، تحست

أشعة الشمس الذهبية كأنها الألم والفرح ترتفع ثم تهوي لتبدأ من جديد.

وهمس زوجها بجانبها:

"البحر يحوي كل شيء. الحياة نفسها. تجمع الصخب والحيوية والسلام."

قالت معقبة:

"البحر قاس، انه يأخذ مثلما يعطي."

والقى ببقايا السيكار في البحر وقال:

"القسوة موجودة في كل شيء. حتى في الفرح. علينا أن نتقبل ذلك."

وعاد يقول:

"أعرف أنه من العسير عليك يا أسيرتي الخالمة أن تواجهي حقيقة أن الساعات التي أمضيتها معي تلك الليلة لم تكن بغيضة تماما."

حاولت التخلص منه وهي تقول:

"دعنا لا نتكلم في هذا الأمر."

لكنه تمسك بأسرها وقال وهو يهزها:

"أنا ألح في سماع ردك."

ورفعت رأسها وواجهته بمينين تشعان بريقا أزرق وقالت:

"هذه الساعات، كانت كما اردتها أنت، أجل يابول. ولكن قلبي ملكي."

قال وعيناه في عينيه:

"لعلك تعتقدين أن زواجنا علاقة مستبدة، حسنا، دعيني أخبرك يادومني أنك اذا عشت مع رجل تحبينه، فستكتشفين أن هناك وقتا للصراع، ووقتا للتقارب ووقتا للتباعد. الحب والكراهية ليسا غريبين أحدهما عن الآخر، ان البسالة وكبح الجماح لا وجود لهما الا في الكتب الخيالية."

قالت:

"أنا أتوقع البسالة يابول، انه خيال المراهقة بعينها، لقد لقيت منك كل ما توقعت عندما أقسمت على طاعتك".

قال بلهجة تحذير:

"وتذكرني أن الشرف كان ضمن ما أقسمت عليه".

قالت والرياح تداعب خصلات شعرها، وقد امتلات عيناها بزرقة سماء اليونان ومحيطها:

"من المؤسف أنك أنت لم تتذكر ذلك يابول".

واهتز ركن فم بول بعصبية وهو يحدق فيها. وتحركت عيناه فوق بلوزتها المطرزة المستوردة من جزيرة كريت والتي كانت الرياح تداعبها وكان شعرها المتطاير يحيط بوجهها، ويضفي على وجنتيها ضياء ورديا.

وقال بول بتهكم:

"أهل أنديلوس سيظنون أنني أسعد رجل على الأرض".

قالت بسرعة:

"أتمنى لو كنت امرأة عادية".

وأطلق ضحكة عميقة وقال:

"تتمنين ذلك حقا؟ سواء عادية، او جميلة كنت ستظلين دومني".

وكانت تسمعه، ولكن اهتمامها كله كان مركزا على الحركة التي لاحظتها بجانب المركب. وقالت مشيرة نحو حركة المياه:

"هل يوجد سمك القرش في مياه اليونان؟"

وانحنى ليتابع الحركات التي كانت تموج ثم تدور وتقفز وذراعه ملتف حول خصرها.

"انه درفيل".

للمرة الأولى ترى درفيلًا ابهجها ذلك، واستدارت وابتسمت لبول في اشراق.

قال بول:

"اسماك الدر فيل تأتي الى ساحلنا وستنعمين بمتعة مراقبتها أثناء إقامتك في البيت القائم على ربوة النسر".

وضحكت لمنظر تحركات الدر فيل في البحر، ثم سألت:

"ألن نقيم باستمرار هناك؟"

"ليس دائما".

"أعتقد أن الاعمال تحتّم عليك السفر".

"أجل، سأقوم برحلة بعد شهر قليلة".

وكان اهتمامها كله موجها الى الدر فيل لكن شيئا ما في لهجته جعلها تنظر اليه، ولم يكن من المستطاع قراءة عينيه، لانهما كانتا خلف نظارة الشمس لكنها تساءلت اذا كان يعتبرها مجرد نزوة، وفي الوقت المناسب سيتركها تذهب وأحست بشيء ما يفوح في قلبها. هل هي ملكة فقط طالما أن ذلك يروق له. تماما كما كان يمسك بها في تلك اللحظة بذراع قوية وأصابع صلبة تفيد معصمها. واجتاز مركبهما ميناء أنديلوس، لأنهما كانا متجهين الى المرفأ الخاص داخل ممتلكات بول لكن دومني استطاعت أن ترى في الميناء مراكب الصيد الملونة والمنازل البيضاء ووصل الى مسامعها صوت صياد شاب يغني، وظل صوته يلاحقهما حتى ابتعدا...

وفي اهتمام سألت:

"ماذا تعني كلمات هذه الأغنية؟"

ورد بول ورنه سرور في صوته:

"انه يغني لحبيبتة التي يتمنى أن يتزوجها عندما تستقر أخواته... ليست أغنية عاطفية على النحو الذي توقعتة. ليس كذلك؟ ولكن هذا هو التقليد في اليونان. اذا كان الابن هو العائل الأساسي للأسرة فيجب أن يساعدوا حتى تتزوج أخواته".

وهمست دومني:

"كم هو صعب على الشاب المسكين. لا غرابة أن صوته

يبدو حزينا *.

قال بول بحفاة:

"أه، لكن فتاته تحبه، وهو يعرف أنها ستنتظره، وأن قلبها سيخزن الحب *.

واهتزت دومني لجمال الكلمات. لكن هل يزيد دائما الانتظار حلاوة الحب؟ إن هذه الفكرة تعبر بكل تأكيد عن العاطفية. ومع ذلك زعم بول أنه لا يؤمن في الحب.

وكان المرفأ محاطا بصخور قاتمة. والمياه الزرقاء تنساب إليه في رقة وتتكسر عند القناة الضيقة. وفكرت دومني في الجو العاصف، وكيف أنه لابد أن تبدو المياه وكأنها تغلي بين الصخور في هذا الممر الضيق فتصعب الملاحة.

ومن الشاطئ. رأت أبراج الصخور ترتفع نحو السماء والطيور تبني أعشاشها فيها وتطير بينها وأعشاب البحر المزهرة تكسوها.

ورسوا بجانب صخرة كبيرة، ولاحظت دومني أن الشاطئ يتكون من مجموعة صخور، تفضلها المياه. والحشائش تتلوى فوق الرمال الشاحبة كالثعابين. وتعلو بجانبها بعض الشجيرات الصغيرة التي تحميها من الشمس المحرقة.

ووقفت دومني تلقت حولها، وتتساءل عن كيفية الوصول إلى البيت من الشاطئ ولم تلبث أن اكتشفت الطريقة، فقد أقبل أحدهم يحمل بطارية كهربائية كبيرة، ناولها لبول وهو يبتسم. وتكلم معه بول باليونانية، مشيرا إلى المركب، ومعطيا أوامره بالنسبة للحقائب. ثم قاد دومني عبر فتحة كهف واسع.

وقال لدومني:

"منذ زمن بعيد كان هنا مخبأ للمهربين، إنه يوصل مباشرة إلى البيت. وهو آمن تماما. إن حركة المد والجزر بطيئة هنا، ولا تشتد إلا عندما يكون الطقس سيئا. ومن الحكمة

حينئذ الابتعاد عن الشاطئ *.

وضحكت دومني قائلة:

"يا لها من طريقة مبتكرة للوصول عروس إلى بيتها. لكنها تناسب شخصية القرصان فيك *.

وتردد صدى كلامها في الكهف. ونظرت دومني إليه وهما يعبران الممر الصخري، رجل غريب، متقلب، يضحك مثل صبي صغير.

وقال:

"الأرض ترتفع، هل تحسین بها؟ سنصل حالا إلى باب يفتح على السلم الذي يقود إلى الحديقة، هذا الممر السري يعجبك أليس كذلك؟

ووافقتة بابتسامة قائلة:

"أجل، تعرف أنني خيالية *.

قال باعتداد وبلهجة الخاصة:

"هذا شأن الانكليز *.

وبعد دقائق أضاعت البطارية بابا خشبيا، يفتح على سلم حجري، وقال بول محذرا:

"من فضلك، كوني حذرة، السلالم متأكلة بفعل السنين، والآن احترسي، وأمسك بها عندما أوشكت أن تفقد توازنها، ولمدة لحظة، في الضوء الخافت، التصقت به واحتبست أنفاسها واعتقدت أنه سيمانقها، لكنه أخلى سبيلها، وتابعت صعود السلم، محاولة ألا تبدو متعجلة، وتبعها في صمت حتى وصلا إلى الخارج، حيث يوجد ممر يخترق حديقة تعلوها شرفات فسيحة، وكانت أشجار السرو تملأ المكان بألوانها الخضراء والذهبية، وأشجار الفلفل مليئة بالمصافير المفردة. وقال بول وهو ينحني ليجمع باقة من الياسمين ذي الرائحة العطرة ويضعها في شعر دومني:

"في الجانب الآخر من البيت غابة صنوبر *.

وتدلى الياسمين من شعر دومني وأحاط بوجهها، وملاً برائحته أنفها، لكن ما معنى أن يتوجهها بورود الخب في تلك الحديقة التي بدت معلقة فوق البحر، كأنه يريد أن يقول لها بدون كلمات، أنها في تلك الليلة ستكون لأول مرة وحدها معه في بيته.

كان البيت فوق قمة الصخرة، معزولاً عن العالم، وكان يبدو غامضاً في عيني الفتاة التي جاءت إليه عروساً، كانت جدرانها ذهبية، مع وجود سلالم تقود إلى شرفة واسعة رصت حولها المقاعد والارائك والموائد، وعدد هائل من الاواني تنبت فيها أنواع مختلفة من النباتات. ومن فوق السور لم تر دومني سوى هوة سحيقة عميقة يليها البحر والصخور. وتراجعت لاهثة بعض الشيء، ثم استدارت لتواجه بول وهو يقول وقد هد يده السمراء إليها:

"تعالى... دعيني اريك البيت".

وذهبت معه، وما زالت متوترة من منظر الهوة، ودخلت البيت ويدها في يده من خلال باب زجاجي، وقال وهو يشير في اتجاه الغرفة الكبيرة بمقاعد الوثيرة، ومراياها الأثرية القديمة قال:

"هذه هي غرفة الاستقبال".

ثم استدار ناحية المدفأة الحجرية وسألها:

"هل أعجبتك؟ الليل هنا بارد والانكليز يحبون النار في المدفأة اليس كذلك؟"

ورمته بنظرة طويلة، فجأة بدا لها أكثر غرابية من أي وقت مضى وأومأت برأسها بسرعة رداً على سؤاله، ثم أدارت بصرها بعيداً عنه، إلى الجانب الآخر، حيث رأت سلماً خشبياً نصف دائري يقود إلى منصة يرتكز فوقها بيانو، كان سواده لاجعاً، وكان يبدو رائعاً ورقت نظرات دومني كان البيانو من وسائلها الترفيهية المفضلة، ورغم أنها لم تدرس العزف،

الا أنها كانت ذات أذن موسيقية، وكان عمها يحب أن تعزف له على البيانو القديم في فردان.

وهمس بول:

"هل أعجبك يا دومني؟"

وأومأت، ورغبت في الجلوس أمامه، وأن ترفع عنه القطاء اللامع الذي يحجب عالمها كانت تستطيع دائماً أن تنسى فيه نفسها.

وقال بول: انه لك.

واستدارت تنظر إليه بعينين مرتابتين وهي تقول:

"لي أنا؟"

ابتسم قائلاً:

"جاء به من أثينا منذ ثلاثة أسابيع، اما هذه المنصة فكانت لاستعمال جدي الخاص. حيث كان يوجد مكتبه المهيب. وفي الواقع فان هذه الغرفة كانت مكتباً. وهذه القطع من الأثاث جمعتها من أركان غريبة في البيت وأمرت بتنظيفها ونظفت حتى استعادت لمعانها، وهذه الأبسطة من جلود الدببة كانت في غرفة المختلقات أيام زوجة أبي... آه... ولكنك لا تهتمين بهذا كله".

ولمست معصمه بحياء حيث الشعر الذي يحيط بالساعة، وقالت:

"بالعكس يا بول، هذه الغرفة رائعة، ولكن أخبرني، ما هذه الكلمات المحفورة على حجر المدفأة؟"

وسار نحو المدفأة، وتبعته، ولاحظته وهو يمر على الحروف اليونانية باصبعه قائلاً بصوت خافت خال من التعبير:

"هذه الكلمات تقول: 'تحذروا قوى الظلام مثل أبوللو'."

همست وهي تفكر في عجز بول عن مواجهة الضوء الشديد، أو أشعة شمس اليونان التي يحبها:

"أبوللو كان رمز الضوء".

وتذكرت أنهما استمتعا مرات عديدة بحمامات الشمس على شاطئ يبعد عدة أميال عن أثينا، حيث يدفن وجهه في الرمال، ويترك بقية جسده للشمس التي توجه الطعنات لعينييه ما لم يحميها خلف النظارتين وأحسست دومني أن لذلك علاقة بالضوء الذي تعرض له، والذي نتجت عنه تلك الندبة المخيفة فوق عينه اليمنى، وسألته:

"متى سأرى أختك غير الشقيقة؟"

وكانت قد فهمت من أحاديثه أنه يحب هذه الأخت كثيرا، لكنه لم يكن على وفاق مع أمها، وكانت أمه قد ماتت وهو في الرابعة من عمره، وأخوه مازال طفلا، وتزوج والده بعد ذلك بسنوات، وكانت كارا ثمرة هذا الزواج غير السعيد. وقد مات والد بول فجأة اثر أزمة قلبية، بينما كان يقود يخته في البحر الأيوني، وكانت زوجته معه ففرقت عندما فقد اليخت توازنه وهو تحت قيادة رجل فارقت الحياة.

وكانت كارا تعيش مع عمه بول، لأن مسؤوليات العمل كانت تبعده كثيرا عن أنديلوس، وخططت دومني لأن تستضيف الفتاة خلال عطلات نهاية الاسبوع، لقد أحسست غريزيا بأنهما ستكونان صديقتين.

وقال بول:

"سنذهب غدا لنترى كارا والعمة صوفيولا، والآن لنكمل جولتنا في بيتك الجديد ياسيدة ستيفانوس".

بيتها الجديد! كان مليئا بالممرات، والأبواب غير المتوقعة. والأثاث الداكن، والابسط اليونانية المصنوعة يدويا، وأخيرا الغرفة التي كانت ستنام فيها. الغرفة المجاورة مباشرة كانت غرفة بول، وقد استقرت حقائب كل منهما في، حجرته، وذهب هو لياخذ حقيبته الصغيرة الخاصة، وظهر من جديد قائلا أنه سيهبط الى الطابق السفلي ليعمل ساعة أو ساعتين. ووقفت تختبر بأصابعها المشاعل

الايطالية الجميلة الموضوعة على مائدة زينتها. ثم قالت:

"شكرا يا بول على البيانو".

وعكست لها المرأة صورته، كان طويلا فارعا، وكان رأسها بمحاذاة قلبه، وجذبها نحوه وهو يطوق خصرها، وهمس في طبقات شعرها الناعم حيث كانت باقة الياسمين مازالت معلقة وقد انتشر شذاها:

"الآن يادومني تبدأ حياتنا معا بالفعل".

والتقت نظراتهما في المرأة، ودب الاضطراب القديم في أعماق دومني عندما لمحت نظرة الرغبة في عينيه النحاسيتين.

ثم دار في غرفتها وسألها:

"هل أعجبك مخدعك؟"

قالت وهي ترتعش:

"انه جميل جدا".

وأغلق الباب خلفه، وببطء فارقتها التوتر الذي كان يستبد بها كلما لمسها، ونزعت الياسمين من شعرها، وخبأته في احد أدراج مائدة الزينة، ثم تناولت فرشاة شعرها، وكان شخص ما قد أفرغ حقائبها، وأخذت تمشط الخصلات لتخلصها من بقايا الياسمين. وسمعت طرقا على الباب، ودارت في ارتباك، وهي عاجزة عن التفكير في الكلمة اليونانية التي تعني "أدخل" وأخيرا قالتها بالانكليزية، ودخلت ليثا، تبتسم بطريقتها الجادة، وتمنت أن تعرف الذي مازال محريا عليها، وقالت:

"شكرا يا ليتا".

"انني تحت أمرك حتى تختاري وصيفة ياسيديتي".

وعملت ليتا غطاء السرير المزدوج، ووضعت قميص نوم دومني في مكانه، وقالت دومني وهي ترفع شعرها:

"أوه... لا أعتقد أنني بحاجة الى وصيفة... لقد

اعتدت الاعتماد على نفسي، ويبدو لي أمراً غير مستساغ أن
يعنى بي من رأسي إلى قدمي".
وبدت ليتا مذهولة بعض الشيء لكلام سيدتها الشابة
وقالت:

"عليك ياسيدي أن تجدي في القرية فتاة يعتمد عليها، وهي
بدورها ستقدر لك اختيارها لخدمتك، أن بناتنا ينشأن على
الطاعة والمساعدة، وسيدة في مثل مركزك يجب أن تكون لها
وصيقتها الخاصة".

وأغرقت دومني في الضحك وقالت:
"حسناً جداً، حسناً جداً، ولكن إذا كنت حريصة إلى هذا الحد
على أن تكون لي وصيفة، فتولي أنت مهمة البحث عن واحدة.
انكم يا معشر اليونانيين أكثر الناس تضييماً ومغاداً، ألستم
كذلك؟"
"نحن كذلك ياسيدي".

وابتسمت ليتا من جديد وهي تنحني لتلتقط وريقات
الياسمين المتناثرة أمام مائدة الزينة واحدة واحدة، وحملت
دومني في شعرها الأسود الناعم، وتساءلت عما إذا كانت
ستعتاد يوماً طرق اليونانيين في الترتيب، فالحياة في فردان
كانت سهلة للغاية، وغير معقدة. لم تكن هناك مشكلة خدمة،
فقد كانت دومني تقوم بمعظم العمل بمعاونة عاملة تأتي
يوميًا. وسألت دومني:

"هل استمتعت بإجازتك مع يانيس؟"
وردت ليتا برقة:

"قمنا بمساعدة والده في عمله في مزرعته الصغيرة. لقد كان
عملاً عن حب، وهذه إجازة في حد ذاتها".
وظلت دومني تفكر في كلام ليتا بعد انصرافها، كان حقاً
ما قالته أن الإنسان لا يضيق بواجب أو بتضحية، إذا كان
العطاء عن حب. وبحجاسة اتخذت مظهر الشجاعة،

نغذت دومني ما اقترحه بول، وذهبت للتعرف إلى بيتها
الجديد. كان البيت من الداخل غنياً بأخشاب السرو، وأخشاب
الأرز، ولكن الزمن والأيدي تركت بصماتها على كل شيء،
فتأكلت أجزاء منها، ومن خلال إحدى النوافذ، رأت بحراً من
شجر الصنوبر وقد غطى الغابة ضباباً بنفسجي وكانت للصنوبر
رائحة نفاذة امتلاً بها الجو.

وهبطت دومني السلم إلى الصالة وهي تشعر بوحدة غريبة
في ذلك البيت الكبير المنعزل عن العالم، الذي تحيط به
همسات المحيط والصنوبر. وفتحت أبواباً كثيرة، ونظرت من
خلالها إلى الغرف، لكنها كانت حريصة على تجنب الغرفة التي
كان يعمل فيها بول، وكان قد أراها أياها وهما في طريقهما
إلى الطابق العلوي، وكان ذلك سبباً لارتياح دومني إذ عرفت
أنه سيقضي جزءاً من كل يوم في هذا المكتب.

وأثناء انشغاله في عمله، بوسمها أن تكون حرة، حرة في
أن تكتشف الجزيرة، وأن تسيح وكانت تعتقد أن ذلك
سيساعدها على مواجهة الأمسيات والليالي. وجاء لها يانيس
بالشاي والخلوى وبعدما تحدثت معه لبضعة دقائق، خرجت
إلى الشرفة الكبيرة لتشرب الشاي. ومن ذلك المكان كان
الأفق يبدو أشبه بقوس قزح يلقى سهاماً من اللهب تحت وهج
الشمس القاربة وكان منظرًا انحبست له أنفاس دومني ثم بدأ
الظلام يزحف، وعادت إلى الداخل، وصعدت إلى الطابق العلوي
لتأخذ حماماً ولترتدي ملابس العشاء.

وكان العشاء يقدم متأخراً في اليونان، لذلك كان لدى
دومني وقتاً كافياً لأن تستحم على مهل، وأن تسترخي في
الحوض الكبير الذي يكاد يتسع للسباحة.

وكانت غارقة في بهجة حمامها، عندما فوجئت ببول يهتف
لها:

"لا تمضي ليلتك كلها في الحمام يا عزيزتي".

فاجابته:

"ساكون معك بعد قليل"!

وعندما جلسا الى الطاولة بعد قليل اشاحت عنه بوجهها،
وتشاغلت بمشاهدة الازهار في الزهريات، وقالت هامسة:
"احب رائحة الازهار والاشباب هنا، هذه الغرفة كلها في
الواقع جميلة".

قال مازحا وهو ينظر اليها:

"نقطة الضعف في يادومني، أن لي عينا يونانية في اكتشاف
الجمال".

سألت في صوت خافت:

"هل هذا هو عذرك الوحيد يا بول؟"

أجاب وقد فهم مرماها بسرعة:

"ليس تماما، لدي سبب آخر، ولكنني لا أنوي أن أخبرك عنه
في هذه المرحلة".

وأخبت بقلبها يكاد يخترق صدرها وهو ينطق بهذه
الكلمات، ما الذي كان يعنيه؟ انه أرادها زوجة لأنه أحبها؟

٧ - وجه من الماضي

"أيتها الطفلة، هل لك أن تهدأي؟"

توسلت بهذه الكلمات السيدة ذات العينين الخزيتين، التي
جلست على مقعد من الخيزران، تشتغل الدانتيل، كانت
ترتدي السواد، من الغطاء الصغير فوق شعرها الرمادي، الى
أطراف الحذاء الضيق في قدميها، وكان الراديو الصغير
الموضوع فوق المنضدة المجاورة لها يشير الى أن سنوات
الحداد الثلاث الأولى على زوجها قد مرت، وأنها تستطيع الآن
أن تتمتع ببعض المباح الخفيفة.

وقالت كارا ستيفانوس معترضة وهي تقفز:

"ولكنهما ياعمتي صوفيولا سيصلان في أية لحظة".

ثم تدلت من سور الشرفة الحديدي، وبذلك كانت تستطيع
أن ترى سيارتهما، وكان وجهها الذي لفحته الشمس منفعل
التعابير، وهزت العمة رأسها عندما أنصرفت عما كانت
تطرزه.

كانت على ذراعي كارا علامات حمراء، أحدثتها
بأظافرها. وفكرت العمة في أن بول يجب أن يعرض أخته على
أخصائي أعصاب. ومرت كارا بجانب مقعد عمته

كالحصان الأسطوري "بيفاسوس" ذي الجناحين، في اتجاه السلم وهي تردد:

"ظهرا... انهما قادمان..."

وفتحت بسرعة بابا صغيرا يؤدي الى الطريق، والتفت عيناها وهي تجري نحو السيارة ذات اللون الكريمي التي وقفت أمام البيت... وصاحت باليونانية:

"مرحبا بعودتك يا بول"

وتأملته دومني وهو يرفع أخته النحيلة بين ذراعيه، ثم وهما يتعانقان بفرح غريب، واحتضنت الفتاة وجهه بين يديها السحراوين، وهي تردد اسمه، بينما انهمرت دموعها. وقالت:

"افتقدتك كثيرا، كيف حالك يا أخي؟"

"أنا في أحسن حال أيتها الصغيرة"

ثم قال بعد أن أنزلها على قدميها:

"والآن يا سنجابتي - تعالي قابلي زوجتي، دومني"

وفتح باب السيارة، وخرجت دومني لتواجه لفحات الشمس الحارة. كانت ترتدي ثوبا سماوي اللون، وبدون أكمام، وكانت تبدو غاية في الرقة والجمال، حتى أن كارا لم تملك نفسها من التحديق فيها.

وقال بول بالانكليزية:

"قبلي أختك الجديدة يا كارا"

وتقدمت الفتاة في ارتباك من دومني، وقالت وقد احتقن وجهها خجلا من قبلة زوجة أخيها الناعمة على وجنتها السمراء:

"مرحبا بك في أنديلوس، وفي أسرتنا يا دومني"

ثم تراجعت لتقف بجانب بول، وأطلق ضحكة وهو يحيط خصرها الضئيل بذراعه، وسأل:

"كيف حال الجميع يا كارا؟ هل العمدة صوفيولا بخير؟"

"أجل، ولكنها كانت قاسية جدا معي تقول أن حالتي العصبية

سيئة، وأنها ستطلب منك أن ترسلني الى أخصائي أعصاب" صاح:

"يالله من كلام فارغ. ماذا فعلت؟"

"أحيانا أحك جلدي"

وحكت جلدها بالفعل وهي تتكلم، وتركت احتقانها على ذراعها الأيسر. وعيس بول في وجهها، وضربها على يدها، ثم استدار وقال لدومني بجفا:

"كارا ليست في الحقيقة قردة يا عزيزتي ولكنها تقلدها". وأطلقت كارا ضحكة صغيرة تدل على الخجل، ثم جذبت إحدى يدي أخيها، ورفعتهما وقبلتها، وبحثت وجهه بعينيها السوداوين السريعتين، وقالت بسداجة:

"أعتقد يا بول أنك سعيد لأنك تزوجت"

وأجابها على ذلك بأن قرص مداعها أرنبه أنفها - وقال:

"ستجعلين دماء الخجل تتدفق الى وجه دومني بملاحظاتك، انها انكليزية، يجب أن تتذكري ذلك، ولم تتعود بعد على طريقتنا في الكلام"

"ولكنني سعيدة للغاية لأنك تزوجت يا بول"

ثم استدارت وواجهت دومني بابتسامتها الساذجة قائلة:

"كنت قد بدأت أعتقد أنه لن يتزوج أبدا، وليس في صالح الرجل أن يظل بلا زوجة. وأنا سعيدة الى حد الرغبة في الفناء، لأن أخي الوحيد العزيز اختار لنفسه مثل هذه الزوجة الجميلة"

وتأثرت دومني تأثرا شديدا، كانت قبل هذه الكلمات البريكة الصادقة الصادرة عن الفتاة، تحس بالتواضع. وبدأت تخشى أن تكتشف كارا، أن أخاها وزوجته لا يجمعهما الحب كما اعتقدت. وراقبت بول مع أخته الصغرى، ولمحت في عينيه بريق الرضى وثلاثتهم يقتربون من دخول البيت، واقترحت كارا أن يقبل بول دومني عند أول درجة في

السلام، حتى تدخل بركة حبهما الى البيت معهما .

وكانا قد جاءا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع في هذا البيت اليوناني القديم فوق ميناء أنديلوس، بدعوة من عمته التي اتصلت به تليفونيا، وألحت على ذلك، ووقفت العمة في الصالة، ترحب بابن أخيها وعروسه بتقديم العنب المسكر والماء المثلج كمادة اليونانيين وسألت كارا بلهفة اذا كانت تستطيع أن ترشد دومني الى غرفة نومها، فقالت العمة وهي تضع يدها على كم بول:

"أجل، أجل، أيتها الصغيرة القلقة، وتعال أنت يا ابن أخي، لتحدث معا في الشرفة، عندي ما أريد قوله لك ."

وقالت كارا مقطبة وهي تمسك بيد دومني:

"أراهن أن بعض هذا الحديث عني ."

وصعدا معا السلم الى الطابق العلوي، وعبرا قاعة كبيرة، وقالت كارا ضاحكة:

"يئس العمة صوفيولا في جعلي سيدة مجتمع، لقد فصلوني من مدرستي في أثينا منذ بضعة شهور ."

ورمقتها دومني بنظرة جانبية وقالت:

"أوه... لماذا ؟"

"لأنني عزفت على فيثارتري في مكان عام، مع انه شيء لطيف ولكن مديرة المدرسة قالت انها قحة وجموح... وعندما جاء بول ليأخذني، حدثت بينه وبين المديرة مشادة مخيفة، ان بول يعرف أنني لا أقصد أن أكون متوحشة، لست متوحشة حقاً ."

قالت دومني:

"أنت في مرحلة انتقال..."

"بالضبط... انني نصف طفلة... ونصف امرأة، ومتمردة على الاثنين . آه، لقد عرفت انك ستقدرين وستفهمينني ."

وتلقت يد دومني ضغطة منها حين استمرت الفتاة تقول:

"رأيت ذلك في عينيك للوهلة الاولى، هذه غرفتك وغرفة بول ."

وحينما فتحت كارا باب الغرفة المزدوجة القديمة، شعرت دومني بقصة في حلقها... كانت حقيبتها قد أحضرت مع حقيبة بول، وكانت الوسيطة قد أفرغت محتويات الحقيبتين، ووضعت قميص نومها بجانب بيجامة زوجها .

واقتربت كارا من السرير الكبير وقفزت جالسة فوقه وقالت:

"أجل، سيشعر كلاكما بالراحة في هذا السرير ."

ثم لمست قميص نوم دومني بأصابع خجلة، وسألت:

"ألا تشعرين في نسج العنكبوت هذا بالبرد؟ آه، ولكن، كلا بالطبع ."

وأطلقت ضحكة، وحدقت بمرح ساذج في دومني وقالت:

"ربما يكون من الرائع أن تكوني امرأة، أم لا ؟"

"هذا وضع له ضحكاته، وله أيضا دموعه ."

وألقت دومني الى كارا رزمة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها، فهمست كارا:

"والآن، ماهذه ؟"

وفي ابتسامة لطيفة طلبت منها دومني أن تفتح الرزمة وان ترى ما فيها، وفعلت كارا ذلك بأصابع منفعلة، وحبست أنفاسها وهي ترفع غطاء اللعبة المربعة، وتكشف عن لعبة بودرة رقيقة، وأحمر شفاه، ونظرت كارا بوجهها الأسمر في امرأة اللعبة، وقالت باليونانية:

"أتمنى لو كنت جميلة يادومني لتناسبني هديتك، شكرا كثيرا ."

وداعبت كارا اللعبة بأصابعها، ثم عادت تقول:

"ما هو شعور المرأة عندما تكون جميلة، جميلة حقاً، مثلك ؟"

وتلاشت ابتسامة دومني وهي تنظر الى أخت بول مصدومة، فالحقيقة مرة، لم تكن تستطيع أن تجيب قائلة: "لقد

تعلمت أن الجمال فح، انني أكرهه لأنه جعلني ملكا لأخيك،
ولأنني مجرد متاع له، فأنني مدفوعة الى ايذائه، لا أستطيع
أن أكف عن ايذائه، لقد أصبحت قاسية وضئيلة، لأن لي هذا
الوجه، وهذا الجسم *
وقالت بجديّة:

"الجمال في الاعماق *"

"تعنين أنك يمكن ألا تكوني جميلة في أعماقك *"

وكانت نظرة كارا نفاذة، هي الصغيرة في بعض
تصرفاتها، كانت أكبر في البعض الآخر، ووقفت دومني عند
طرف السرير مشدودة خشية أن تكون كارا شعرت بعدم حبها
لبول.

وقالت كارا:

"كتب لي بول يقول أنك تشبهين لوحة "ميديتشي" واعتقدت
أنه لابد أن يكون مبالغا *"

وسألت دومني متلعثمة:

"ما... ماذا *"

"لوحة "ميديتشي" والآن أرى أنه لم يكن مبالغا، إن لك
اللامع الرومانية النبيلة نفسها وأنا أتوقع أن يرغب "باري
سوتيرن" في رسمك، إن باري يعيش في كوخ على الشاطئ،
وعمّتي تدعوه النصاب، ولكنه في أي حال موهوب وهو أيضا
انكليزي، مثلك يا دومني *"

وشحب وجه دومني، كان باري هنا... هنا في اليونان،
وكان يعيش في كوخ في جزيرة أنديلوس وترنحت، وقفزت
كارا من السرير، واقتربت بسرعة منها، ووضعت ذراعا حولها
وهي تقول:

"ماذا بك؟ هل تشعرين بالغثيان؟"

وتماسكت دومني وقالت برجفة:

"من المحتمل أن يكون ذلك بسبب الحرارة، أنا... أنا

لم أعود بعد على شمسكم *"

ونظرت كارا الى وجه دومني الشاحب بقلق وقالت:

"ستشعرين بتحسن عندما تشربين فتجان شاي، هل أحضر

الشاي هنا، أم تفضلين اللحاق بالآخرين في الشرفة؟"

"دعينا نذهب الى الشرفة *"

أحسّت دومني بالحاجة الى الهواء بعد الصدمة لمعرفتها
أن بول - دون الناس أجمعين - أحضرها الى المكان الموجود
فيه باري. لقد كان ذلك قدرا، فكرت في ذلك وهي تتجه
ناحية المرأة لتمشط شعرها وحملت في عينيها الواسعتين،
ورأت أنها خائفة، مثلما هي متلفهة لرؤية باري.

كانت خائفة من بول، الذي ذكرها في اليوم السابق فقط،
أن الشرف ضمن ما أقسمت عليه عندما أصبحت زوجته.

وكانت تضع أحمر الشفاه الوردي على شفثيها، عندما دخل
بول الغرفة، ويده في جيب البنطلون الخفيف الذي كان يرتديه
مع قميص سبور في لون الزمل، وسأل:

"ألا تريدان أيّتا الفتاتان أية منعشات؟ الشاي يقدم الآن في
الشرفة *"

وقالت دومني:

"انني أرتب ملابسي يا بول *"

وتمنت ألا تخبره أخته بما اعتراها من ضعف منذ لحظة،
وراقبته في المرأة عندما انحنى فوق كارا، وأخذ وجهها بين
يديه... وسأل مبتسما:

"لماذا هذا التعبير الشارد يا صغيرتي؟ اعتقدت أنك سررت
لرؤية أخيك. كنت غاية في السخاء بقبلائك عندما التقينا
أمام باب البيت *"

ونظرت كارا اليه، ورفعت يدها الى شعره، وإلى النديبة،
وكلمته باليونانية، وتأكدت دومني التي بدأت تفهم قليلا أن
كارا تذكر شيئا عن أزمار الصداق التي تنقابه، ولم تفهم

اجابته، ولكن نغمة صوته كانت رقيقة، وأضاف بالانكليزية:
"حسناً يا كارا، ماذا كان رأيك في الهدية التي أرسلتها اليك
من أثينا؟"

وأشرق وجه الفتاة، وكانت دومني قد عرفت من بول أن
أخته مولعة بالموسيقى الشعبية. وكانت تجمع الأغاني
القديمة كما تجمع الفتيات الأخريات الدمى، وكانت تعزف
على عدة آلات موسيقية، وقد عثر بول في أحد محلات بلاكا
على آلة "ماندولين" جميلة، فاشتراها وأرسلها لكارا.

وقالت كارا بحماسة:
"أوتارها ذات رنين رائع. سأعزف عليها لك ولدومني بعد
العشاء".

وابتسم بول قائلاً:
"سننتظر عزفك بلهفة، دومني نفسها موسيقية، انها تعزف
على البيانو ببراعة".

ولمعت عينا كارا كالمايس الأسود، وقالت:
"دومني تحب الموسيقى؟ أوه، الاقدار معي اليوم، دومني
لطيفة مثلما هي جميلة، وهي أيضاً تعزف على البيانو!"
واحتضنت كارا أخاها واستطردت قائلة:
"شكراً لك يا أخي الكبير على الماندولين، وعلى دومني".

وقال بول وهو ينظر الى دومني:
"أنا سعيد لأعجايبك المزدوج!"
واستدار ناحية زوجته وقال:
"هل أنت مستعدة يا عزيزتي؟"

وأومأت، وابتسمت لكارا، فقد أدركت مدى تعلقها ببول.
ومدى إشرافها، وأعجبت بنظرات الطفولة الصريحة التي
تلازمها. ووقفت دومني في الشرفة، وبدأت لها ميناء
أنديلوس أشبه بلوحة مزدهرة الالوان، وأخذ بول وكارا يلفتان
نظرهما الى مراكب الصيد بأشعتها الملونة، والدير المبني من

الحجر الابيض، وقد تسلقت جدرانها النباتات الأرجوانية،
والى الجزر القريبة المتناثرة كأنها كتل المرجان. ونظرت
دومني حولها في اهتمام، وكانت الشمس تلمع فوق شمرها،
وثوبها ينساب في نعومة. فبدأت هشة بجانب زوجها القوي.
ولم تنتبه الى أنها كانت موضع تحديق الرجل الذي جلس
على مقعد مجاور حيث جلست عمه بول. وكانت كارا هي التي
لاحظت نظراته عندما استدارت فجأة بطريقتها المعتادة،
وهتفت:

"أهلاً، لم تكن لدي أدنى فكرة أنك ستأتي لتناول الشاي".
أجاب:

"أردت أن اشترك في الترحيب بعودة الغائب".
وتجمدت دومني في مكانها لدى سماعها صوته، ثم التفتت
في ببطء، ووجدت نفسها وجها لوجه مع باري سوتيرن مرة
أخرى! لم يكن قد تغير على الاطلاق، باستثناء لمسات النضج
المتزايد. وحملت عيناه الشقراوان الناعستان في عينيها،
وتذكرت جيداً ذلك الفم الواسع المرح الباسم، وتلك الخصلة
المتهدلة من الشعر الذهبي.

وتساءلت بقلق اذا كان سيعلم معرفته بها، ثم أكدت لها
غريزتها الأنثوية أنه لن يفعل، وأحسست بالاضطراب عندما
نهض من مقعده، وقال لبول بابتسامة مأكرة:

"أنت شديد الحظ... اراهن انك اذا سقطت في البحر، تخرج
ومحارة في أذنك، محارة داخلها لؤلؤة!"

"أرى يا صديقي من النظرة اللامعة في عينيك الفنانة، أن
لؤلؤتي" تروق لك".

وعندما قاد بول دومني الى المائدة في الشرفة ليقدم باري
اليها أحست بقبضة ذراعها القوية حول خصرها.
وقالت دومني:

"كارا أخبرتني ياسيد سوتيرن أن أعمالك رائعة".

وأحست وهي تتعامل مع باري كغريب، أنها تلعب لعبة خطيرة. ورد هو:

"سأكون سعيداً بأن أريك بعض أعمالى ذات يوم يا دومني".
وأحست بقلبيها يحدرها، حين رأت بول يرمق باري بواحدة من نظراته الحادة، ولكنها في الوقت نفسه أرادت أن تقول:
"لقد عرفت هذا الرجل قبل أن تفتحم أنت حياتي يا طاغيستي
الوسيم بوقت طويل". لقد جاءني بالمرح، وليس بالتهديد،
وذهب عني لأنني كنت صغيرة عندما تقابلنا، ولأنه كان يريد
أن يثبت أقدامه كرسام.
ولكنها قالت:

"سأطلع إلى رؤية بعض أعمالك يا سيد سوتيرن، ويخيل إلى
أن نوعية الضو هنا في اليونان لابد أن تترك تأثيرها الرائع
على عمل الفنان، الألوان والخطوط لاشك أنها ذات رونق
مضاعف".

قال وهو يضغط على حروف الاسم:

"هذا صحيح بكل تأكيد يا سيدة ستيفانوس".

وارتفعت عيناه إلى وجهها الذي أحاط به شعرها الفسلي،
فوجدتهما جامدتين، باردتين، وتذكر جيداً مرحها في
الماضي، وشعر بالانزعاج وهو يتأملها تجلس على مقعد بجوار
عمة بول، وتجيب على أسئلة العمة صوفيولاً عن حفلة العرس،
وشهر العسل، بينما كانت الأخيرة تصب الشاي، وقدمت كارا
الحلوى والفاكهة، ثم جلست على ذراع مقعد أخيها، وهي
تأكل حبة تين كبيرة.

وقال باري موجهها كلامه لدومني:

"لا بد أنك زرت الأكروبوليس عندما كنت في أثينا؟"

"زرتة نهارة وجساء، وأعجبني".

وقال بول بابتسامة جافة:

"دومني من النساء اللواتي يفضلن الأشياء المقلنة

على السافرة، الأعمدة الأثرية أزعتها في ضو النهار".
وقال باري ناظراً إلى دومني:

"غالبية النساء خياليات، واني أتساءل يا سيد ستيفانوس إذا
كنت ستسمح لي برسم زوجتك".

واحتقن وجه دومني لكلام باري، ذلك أن العيون كلها
اتجهت ناحيتها، حتى عيني بول غير المقرؤتين، خلف
عدستي نظارة الشمس الرمادية، وتمنت لو تقول: "لا يا
باري". لا تجعل الأمور أصعب مما هي عليه الآن".
وابتسمت كارا في براءة لدومني، ثم نظرت إلى بول
وقالت:

"يالها من فكرة رائعة... يجب أن تدع باري يرسم دومني".
وأضافت:

"أوه، سيثير ذلك غيرة "الكسيس". انها تعتقد أنه لا توجد
من تماثلها جاذبية".

وسأل بول:

"على فكرة، أين الكسيس؟"

وفهمت دومني من تعبير فمه أن طلب باري لم يعجبه،
ووجد في السؤال عن زوجة أخيه "الكسيس" منفذا لتغيير دفعة
الحديث.

وقالت كارا:

"ذهبت الكسيس في نزهة بحرية مع ناس يستأجرون منزلاً
على مقربة منا، حيث سيقضون الصيف، انهم أمريكيون
أثرياء، ولذلك اندمجت معهم الكسيس بطبيعة الحال".

وقالت عمتها بخدة:

"هذا يكفي، هذا شأن الكسيس إذا كانت تفضل صحبة
المتحضرين على الصيادين والمتجولين على الشاطئ".

وضحكت كارا وهي تنظر إلى قدمي باري العاريتين، إلا من
صندل على الطراز الروماني وقالت:

"اعتقد أن العمه صوفيولا تعنيك، ياباري، لأنك تسكن في
كوخ على الشاطئ".

وبعدم اكتراث عقد ساقيه، ونظف بنظونه من فتات
الخلوى، وفهمت دومني من تقطيع وجهه أنه يفكر في الأيام
القديمة، ذات أمسية، في مركب على الشاطئ الانكليزي،
لمح بأنه يجب أن يرحل... ورغم ذلك لم تشعر بالحزن، ذلك
أنها كانت تحب أنهما لابد سيلتقيان مرة أخرى. وافاقت
دومني من شرود أفكارها، لتجد أن كارا جلست منكمشة بين
ذراعي بول مثل قطعة صغيرة، وهزت العمه رأسها وهي تتأمل
الاشئين، وقالت:

"انك تفسدها يابول، كارا بلغت السابعة عشرة، ويجب أن
تبدأ في تعلم الاتزان، انك تعاملها كقطعة، وليس كل الرجال
يحبون أن تتخذهم زوجاتهم مقاعد مريحة".

وجرت الضحكات أشبه بالريح على قم بول، وربت على شعر
أخته الداكن، كان مقصودا بطريقة غريبة، كما كانت قد
عبثت فيه بالمقص.

وابتسم بول قائلاً:

"آه، حسن، ان أحدنا لم ير الآخر منذ حوالي ثلاثة شهور، وأنا
مدين لها ببعض التذليل".

وأغمضت كارا عينيها الداكنتين، وبدت كقطعة فعلا وهي
تمسح وجنتها في صدر أخيها. أما دومني فجعلها صوته
الخاني تتذكر الليلة في القبلا عندما بدأ شهر العسل... ذلك
الصوت العميق الدافئ، نقلها الى الجنة، وكم ألمها، ولا
يزال يؤلمها، اكتشافها أن بول خدعها.

وابتسمت كارا لدومني وقالت:

"كم يبدو غريبا أن أفكر الآن في بول كزوج، وأرجو ألا
يضايك أنني استعمل زوجك كمقعد مريح".
وقالت دومني باستخفاف:

"اهلا وسهلا بك".

ولكن لم يخف عليها ان بول قطب جبينه، ولا النظرة التي
القاها باري على ساعة معصمه، كما لو انه لاحظ شيئا في
سلوكها ارتسم صداه في عينيه، فأسرع يخفيهما حتى يسيطر
على نفسه من جديد، وتلاحقت نبضاتها وقد أحست بالخطر
يخدق بالاجواء.

ونهض باري واقفاً، وانحنى أمام عمه بول قائلاً:

"شكرا يا سيدة ستيفانوس على المشاي".

ثم نظر الى دومني وقال:

"أتمنى أن تستمتعي بالحياة في الجزيرة، ولعلك أنت وكارا
تشرغانني في يوم من الأيام".

وقالت دومني لتسكته:

"سأفكر في ذلك".

وانتقل باري ببصره الى بول وقال:

"وستفكر ياسيد ستيفانوس في السماح لي برسم زوجتك؟"
وأحست دومني في سؤال باري بالتحدي، وانتظرت بقلب
خافق رد بول الذي قال:

"أجل، سترسم زوجتي ياسيد سوتيرن ولكن ليس الآن. وأعتقد
أنه لن يضيرك أن تنتظر بضعة شهور".

وأطلق باري ضحكة قائلاً:

"سأخذها على أنني يجب أن أنتظرا من حسن الحظ أنني
استأجرت الكوخ لمدة سنة".

رد بول في بطة:

"لن أدع أيا منكما ينتظر عاماً...".

وفي تلك اللحظة سمعت دومني عمته بجانبها تحبس
أنفاسها عندما وخرتها ابرة التطريز في اصبعها، وقالت وهي
تلتقي بنظرة دومني الجانبية.

"ياي من حمقاء، حمقاء للغاية في كبر سنني، لقد تركت

على الدانتيللا بقعة دم*
وعلفت دومني وهي تتابع باري بعينيها:
يا للخسارة*.

واتجه باري نحو السلم، طويلا، فارعا، وأشعة الشمس فوق
شعره الذهبي، حتى ذلك الحين كانت دومني لا تكاد تصدق أن
باري عاد الى حياتها* ولكن كغريب*
ونادت كارا خلفه:

"لا تنسى حفلتنا مساء الغد للترحيب بدومني وبول، ستأتي،
أليس كذلك؟"
وابتسم لها قائلا:

"ما من شيء يمكن أن يحول بيني وبين المجيء، وداعا
جميعا* وحتى مساء الغد*"

وساد صمت ثقيل بعد رحيله، ثم قامت كارا وسألت دومني
إذا كانت تحب أن ترى ثوبها الذي سترتيه في حفلة الغد*
ورحبت دومني بالفرصة للفرار، ولكن عندما مرت أمام مقعد
زوجها، أمسك بيدها وتأملها لحظة، وأحست بقلبها يخفق بين
ضلوعها وهو يتفحص وجهها من خلف العدستين الرماديتين
اللتين كان يبدو بهما غامضا، جامدا، وقال بهدوء مثير:
"يبدو أنك وجدت باري سوتيرن شخصا مسليا*"

"أعتقد ذلك لأنه انكليزي*"
وأحست بضغوط أصابع بول، وانسحبت الابتسامة من على
شفتيه وهو يسألها:

"أما زلت تشعرين أنك غريبة معي؟"
وعضت شفتها، وأحست بكارا وعمته ينظران نحوهما،
وحينئذ اذار بول يدها ببطء، ورفعها، وقبلها، وتلفت دومني
القبلة بدون أية حرارة في قلبها، مدركة أنها مجرد اعلان عن
ملكيتها، عن نزوته.

٨ - نمر رابض في داخله

أطلقت دومني صيحة امتزجت فيها الدهشة بالطرب، إذ
كان مخدع كارا أشبه بمحل للآلات الموسيقية الغربية،
وعبست كارا لرد فعل دومني، ثم التقطت آلة الماندولين التي
أهداها لها أخوها، وداعتها بيدها النحيلة، وهي ترمق
دومني بعينين داكنتين كميون الفجر*.

والتقطت دومني صورة عن المكتب لسمرء جميلة، كانت
ترتدي ثوب زفاف* شعرها كان مصففا بطريقة غريبة،
واقتربت منها كارا ونظرت من وراء كتفها وقالت:

"انها صورة أم بول، بول يشبهها، ألا تعتقدين ذلك؟ وهذا هو
والدنا في الاطار المجاور، مسكين ابي، لم يكن سعيدا مع
أمي، انني لا أتذكرها جيدا، ولكن العمة صوفيولا تقول دائما
أنها كانت النزوة الحمقاء لرجل في منتصف العمر*"

وداعبت كارا أوتار ألحانها واستطردت قائلة وهي تضحك:
"وانا ثمرة ذلك الزواج*... ثمرة الشاذة*"

واغتالط دومني، ذلك أنها أحبت في الفتاة براءتها*
وسألت:

"من زعم أنك شاذة؟"
قالت كارا:

"أوه، الكسيس، وأحياناً عمتي، انهما لاتفهماني، وتعتقدان أنه من الغرابة أن أعشق الموسيقى الشعبية الى هذا الحد. وسألت دومني وهي لا تشعر بالارتياح نحو الكسيس: "الكسيس كانت متزوجة من أخيك الأصغر ياكارا، اليس كذلك؟"

وردت كارا بوجه معكر:

"أجل، كانت زوجة لوكاس، لقد مات منذ ثمانية عشر شهراً، في البحر مثل أبي... البحر قاس علينا، رغم أنه مصدر رزقنا..."

وقالت دومني برقة:

"انني أسفة على موت أخيك ياكارا..."

ولمعت الدموع في عيني الفتاة، فحولت دومني انتباهها ناحية صورة أخرى حتى لا تزيد من آلامها، وطالعتها صورة الوجه الأسمر من خلال اطار آخر، صورة بول عندما كان في مثل عمر كارا تقريبا، ولكنه كان بول غيره الآن، بملابسه الغريبة من جلد الماعز، وقبعته الصفوية فوق وجهه الرفيع.

وقالت كارا بفخر:

"كان بول في السادسة عشرة من عمره عندما حارب مع المقاومة، كان مقاتلاً فدائياً، وقد أصيب إصابة بالغة بقنبلة يدوية أثناء معركة أثينا، وكاد يموت، وكان ذلك سبب حدوث الندبة..."

ولمست كارا باصبعها وجهه الخالي من الندبة في الصورة، وعادت تقول:

"الندبة لا تهم... ما زال بول أوسم الرجال في الجزيرة، ولنسوف ترزقان بأبناء رائعين..."

وأمسكت كارا عن الكلام حينما أعادت دومني الصورة الى مكانها على المكتب بسرعة تسببت في وقوعها، وأطلقت دومني ضحكة صغيرة مقتضبة، وقالت:

"تزوجت أنا وأخوك منذ بضعة أسابيع فقط ياكارا، ولم

نفكر بعد في تكوين أسرة..."

قالت كارا بحرارة:

"لكن الأطفال فرحة كبيرة، انهم أرق جانب في الزواج، أوهكذا يبدو لي..."

"أنا، أنا لا أريد أن أتحدث في هذا الموضوع، إذا لم يكن في ذلك ما يضايقك ياكارا..."

وبدت دومني مرتبكة، مرتجفة، وهي تتصفح كتاباً عن أغاني البحر ولكن كارا اغتاضت بعض الشيء، وبالحاج طفولي عادت تطرق الموضوع، وقالت:

"ألا تتمنين أن تمنحي بول طفلاً؟ ان فخر كل امرأة يونانية هو أن تعطي رجلها ولداً... هل الانكليزيات مختلفات؟ هل هن باردات... مثل جمالهن؟"

وأجابت دومني في صوت خافت:

"أنا... ليس من عادتنا أن نتناقش في أمورنا الخاصة..."

وكانت دومني بعيدة كل البعد عن النفور من الأطفال، ولكن الطفل في رأيها كان يجب أن يولد عن حب، ولم يكن خباً ما يستشعره بول عندما كان يأخذها بين ذراعيه. وداعبت كارا أحد أوتار الماندولين، واختلست نظرة نحو وجه دومني وهي تتظاهر بتصفح الكتاب الذي كان بيدها، وسألتها:

"هل تبدو نحن... والجزيرة... غرباء عليك؟"

قالت دومني:

"أنديلوس عالم آخر بالنسبة الي... أحس بأجوائها الأسطورية، لكنني أدرك عدم انتمائي اليها في الوقت نفسه..."

اعترضت كارا قائلة:

"ولكنك بالطبع تنتمين... انت زوجة بول... وهذا يجعلك واحدة منا، لا شك أن عاداتنا تبدو غريبة في البداية، ولكنك في وقت قصير للغاية، ستشعرين وستتصرفين كزوجة يونانية، وستجدين متعة في ذلك..."

وأضافت كارا ضاحكة:

"بول شديد السيطرة بالطبع، وأنت انكليزية ومن الطبيعي أن يحدث صراع، ولكن كما نقول في اليونان، لا يوجد زواج خالي من الصراع، ثم من المصالحة".

سألت دومني في هدوء:

"هل تبدو حقاً يا كارا متصارعين؟"

قالت كارا مؤكدة:

"أستطيع أن أقول أنه توجد بعض الخلافات بينكما، ولكن بداية الزواج هي مرحلة وضع الأمور في نصابها، والسعادة تكتسب ولا تقدم لنا فوق طبق".

وابتسمت دومني متسائلة:

"هل كل اليونانيين فلاسفة؟"

والتفتت كارا قائلة:

"بالطبع، كان اليونانيون متحضرين، عندما كان غيرهم متخلفين... تعرفين ذلك طبعاً".

وأحدث الفتاة رأسها فوق ألحائها، وارتفعت أنغام موسيقية يونانية قديمة، واستمعت إليها دومني وهي تفكر في بول، والنمر الذي يربض في أعماقه.

النمر، النمر، يهدر في الظلام، بعينين ذهبيتين تتأرجحان بالرغبة التي تحركها هي في أعماقه وتكرهها، ووقفت وعيناها فوق صورته في شبابه. وقالت حينما توقفت كارا عن الغزف:

"أنت تجيدين الغزف يا كارا".

وتحسست كارا الماندولين بأصابع يسري فيها الحب، وقالت:

"هذه الآلة تجعل أي نغم جميلاً، إن بول يحضر لي دائماً الهدايا التي أحبها، ذات مرة، عند عودته من إحدى رحلاته، أحضر لي معه شجرة ورد حقيقية، وقد علقت بأغصانها

العصافير... ولكن ذلك عندما كنت صغيرة".

وذهبت دومني إلى غرفتها ترافقها موسيقى المندولين. وفتحت الباب وفوجئت عندما رأت بول واقفاً في الشرفة. أما هو فاستدار عندما سمع وقع خطواتها وسألها جيتسما:

"هل أعجبك هذا البيت القديم؟"

ووصلت إلى منتصف الغرفة، ولاحظ البريق القاسي في عينيها، كأنها دموع متجمدة ترقد فيهما. وسمعتها تقول:

"ماذا تريد مني أن أجيب يا بول؟ إن المكان ساحر، وأنتي صاحب زيارته؟"

وبحركة تنطق بالتعب وبالصياغ، أزاحت الشعر من فوق عينيها. وقالت:

"البيت ساحر، لكنه مليء بأقاربك الذين سيتكهنون ولا شك كيف تسير الأمور بيننا. هل تعرف أن كارا حدثتني عن ذلك؟" قال ببطء وهو ينفث دخان سيكاره المتصاعد في حلقات أمام عينيها الذهبيتين:

"لا أستطيع أن أبدأ بالتكهن".

"كانت تتحدث عن الأطفال... أطفالنا..."

وتصلبت عيناها وهما تتفرسان وجهها الذي ينطق بالتأنيب. وقال:

"أنا آسف لأن كارا ضايقتك، ولكنها طفلة، ولذلك فهي تقول ما في قلبها، يجب ألا تأخذي كلامها على محمل الجد".

"هل يمكن أن تقترح أن أطبق نصيحتك على بقية الموقف؟ هذا الادعاء بأننا عروسان سعيدان، ولا وجود للحب في أفق حياتنا".

"اليونانيون لا يفصحون عن مشاعرهم علانية، وسيكدر أقاربي أكثر مما يسعدهم، إذا أظهرت عواطفك نخوي علانية، إذا كنت تحملين لي أية عواطف".

"مما يريحني أن أعرف أنني لست مضطرة إلى تحثيل

دور العروس السعيدة وأطلقت دومني ضحكة صغيرة، واستطردت قائلة:

"أنا لا أجيد التظاهر ولا الادعاء، حتى عندما كنت طفلة لو أخبرني أحد بوجود مارد في الغابة... لصدقته".

وترك سيكاره ببطء وابتنسم من خلال الدخان قائلاً:

"وماذا عن ذلك الحيوان الذي يشبه الحصان وله قرن ثور يادومني؟ هل تذكرين ذلك التمثال الصغير الذي اشتريته لي بكل ما معك من نقود... وأمسكته بيدك كطفلة وأنت تهرعين الي؟"

قالت دومني ببرود:

"أوه... كنت بالفعل طفلة... مجنونة صغيرة غنت عدة ساعات مثل... مثل طائر أعشى".

وذابت الابتسامة على شفتيه، وقال:

"تعلمت يادومني كيف تكونين قاسية".

قالت وهي تسحب من أحد الأدراج بعض ملابسها الداخلية، وتخرج من الدولاب ثوباً طويلاً:

"لدي أفضل مدرس... أنت يابول".

وذهبت إلى الحمام، وخينما كانت تغلق الباب، شعرت بالزهو لأنها ألمته، ذلك الحيوان الخيالي! كان موضوعاً على مكتبه في تلك الغرفة في بيته وكأن بول كان يختزن احساساً بالسعادة لما يرمز إليه هذا الحيوان من أذعائها... أذعائها الكامل له... ولكن ذلك لن يحدث أبداً مرة أخرى... كانت تعني ما قالت له في الغيلا أنه يستطيع بكل ترحيب أن يستمتع بما اشتراه، ولكن قلبها سيظل ملكها.

ولمحت صورتها في المرأة وهي خارجة من تحت الماء، كانت عيناها عيني أنسانة غريبة، وتأملت نفسها وقد لفت حولها منشفة، أين ذهبت دومني دان الطفلة التي كانت تبحث عن الاشباح في الغابة، وكانت تحلم في السابعة

عشرة بشاب طويل، ذي عيين مرحتين، وشعر أصفر، وأغلقت دومني عينيها لتحاكي رؤية الفتاة التي في المرأة، الفتاة التي يملكها رجل لا تحبه!

ولم تلبث دومني أن اكتشفت أن اليونانيين يفضلون تناول الطعام في الهواء الطلق، تحت أشعة الشمس، أو على ضوء النجوم، وأن وجباتهم المسائية تبدأ في ساعة متأخرة، وأنهم يبطئون فيها، ويتحدثون عن أشياء كثيرة، وغالباً ما ينتصف الليل قبل أن يأتوا إلى فراشهم. وكانت النجوم تلمع في المساء عندما خرجت دومني مع بول إلى الحديقة حيث مدت المائدة المشعشة. كانت ترتدي ثوب دانتيل بلون المشمش، وأحاط شعرها الأشقر بوجهها في تصفيفة رائعة. وبدأ بول في بدلة السهرة الداكنة أكثر طولاً بجانبها. وقد جذب ببذلتها الداكنة، وسلوكه الغامض الانتباه، وجعل من دومني هدفاً لعيني شابة كانت تقف ممسكة بكأس بجانب نافورة مضاعة. كانت ترتدي ثوباً خوضي اللون وانعكست عليها أضواء النافورة، فأظهرت وجنتيها الشامختين، وعمق عينيها الغامضتين، وغزارة شعرها الأسود حول عنقها، وبخطوات المرأة الواثقة بجاذبيتها المفرطة، تقدمت من بول ودومني فأدركت دومني في الحال أن تلك المرأة هي الكسيس، أرملة لوكاس الذي مات غرقاً، وتفحصت الكسيس دومني بنظرات فائرة وهي تسألها إذا كانت أنديلوس أعجبته، كانت لغتها الانكليزية سليمة جداً، وكانت لهجتها غاية في النعومة، وقالت:

"أتمنى ألا تجدي نفسك معزولة تماماً عن كل ما هو متحضر في ذلك البيت الذي يملكه بول".

واستدار بول إلى المائدة يسكب كأسين، ولم تكن عمته وأخته قد ظهرا بعد، وردت دومني بعد أن شكرت بول وهي تأخذ منه كأسها:

"اعتدت الحياة في بيت ريفي".

ولم تكن دومني تتوقع أن تحب الكسيس كثيراً، إذ أحست أنها ستجدها من ذلك النوع الذي يعيش لنفسه فحسب، كان ذلك واضحاً عليها كمطرها العنبري النفاذ، الذي كان منتشرًا حولها وملحوظًا في حركاتها الشبيهة بحركات القطرة الفارسية الميالة إلى الرفاهية. وأطلقت الكسيس ضحكة عالية. وقالت: "ذلك البيت! ألم أقل لك من قبل يا بول أنه أشبه بالصومعة؟" ورشف بول رشفة من كأسه، وقال وهو يواجه عينيها: "قلت ذلك، ولكنه بني كذلك حتى يمكن أن يجد فيه الرجل مهرباً من المدنية المزعومة".

"ولكن دومني امرأة... وواحدة من مثل حلاوتها لا بد أن تشعر بالملل مع مرور الوقت وهي منغية في صومعتك المنعزلة. أعرف أنني شخصياً كنت سأشعر بذلك".

قال بول مبتسماً:

"أنت مخلوقة قلقة من بنات المدينة يا الكسيس. ودومني فتاة ريفية، وأرجو أن تجد متعة في همسات البحر وأشجار الصنوبر. والسير في الغابات نهاراً".

وهتفت الكسيس وهي ترمق من فوق حافة كأسها:

"صحيح؟"

وأحست دومني بشعور عدائي نحو تلك الفتاة لم يسبق لها أن أحست به نحو غيرها، إذ كان واضحاً أن الكسيس لم تكن تعني بأن يكون بيت بول غير ملائم لزوجته لكنها كانت قطعة جميلة تنهش في كل شيء، لتستمتع فقط باستعمال مخالبيها.

فردت دومني:

"أنني أحب الغابات لأنها تذكرني بوطني".

وقالت الكسيس بابتسامة لدومني:

"لا تدعي ساحة القابة تجذبك بعيداً يا عزيزتي... فقد تضيعين..."

وقال بول بجفاف:

"عرفت هذه الغابات منذ كنت صبياً... وإذا ضلت دومني طريقها، فسأجدها حالاً، وسأعود بها البيت".

ومنحته الكسيس ابتسامة ناعسة من خلال أهدابها وهي تقول:

"يا لك من شخص محب للسيطرة، يا بول!"

ثم نظرت إلى دومني وقالت:

"أليس مريباً لانكليزية أن تتزوج واحداً من يونانيين المستبدين؟"

وأحست دومني بالتوتر وبقيت بجانب بول، وشعرت بالارتياح عندما حولت الكسيس اهتمامها إلى وصول مضيفتهم، واثنين من الخدم يحملان صواني الطعام. وظهرت كارا لاهثة الأنفاس في ثوب أخضر، ومعها آلة الماندولين التي وضعتها بعناية على مقعد تحت إحدى الأشجار.

وقالت الكسيس وهي تتشدد بالكلمات:

"هل سنستمع إلى الموسيقى أثناء تناولنا الطعام؟"

ورمقتها كارا بنظرة عجزية متحفزة، وقالت:

"دومني ترغب في سماع الموسيقى اليونانية، هل عندك مانع؟"

وحولت الكسيس عينيها نحو الفتاة وقالت:

"ومن أكون في هذا البيت حتى أمانع شيئاً؟"

ثم حملت فيها وهتفت:

"أحمر شفاه يا كارا؟ هل وضعته من أجل نيكوس؟ أه... ها هو قادم... نيكى، ابنة خالك الصغيرة وضعت أحمر شفاه تكريماً لك!"

وكان نيكوس شاباً وسيماً لطيفاً، وفي طريقه إلى بول، شد شعر كارا بدون رقة. وأحست دومني بمدى زهو أمه الارملة به، كما أحست أيضاً أن الصغيرة كارا متعلقة به وإن لم

تكن تشعر بذلك تماما، ذلك أن وجهها احتقن بشدة لملاحظة الكسيس، ومسحت أحمر الشفاه في سرعة بمنديلها .

وجلس نيكوس بجوار دومني على المائدة، وساعدها حديثه الودي على الاسترخاء والاستمتاع بأطباق الطعام اليونانية، وانطلق نيكوس بابتسامته المرحية يشيع جوا من البهجة أثناء تناول الطعام، فكان يقدم النخب في صحة العروسين وهو يردد قولاً مأثوراً: الزيت من الكريم، والخل من البخيل والنخب من الأبله! وباختلاس نظرة نحو بول، تبينت دومني أن نيكوس يشبه صورته في شبابه وهو بملابس المقاتل الفدائي، وأحست أنه منذ ذلك الحين، تدخل الشيطان، وأحال الشاب المثالي إلى رجل قاس، وتساءلت إذا كان أحد الموجودين حول المائدة يشك في ذلك، أم أنهم كانوا يعرفون ويتقبلون الأمر باعتبارها طبيعة الرجل اليوناني الناضج؟

وقال نيكوس:

"لا بد أن أنديلوس تبدو غريبة بعد انكلترا، وأنتك تشعرين حتما أنك بعيدة جداً عن وطنك!!"

وردت دومني:

"أجل انكلترا تبدو بعيدة جداً".

وغمز نيكوس بعينه عبر المائدة لكارا وقال:

"أذن يجب أن نبذل أنا وكارا قصارى جهدنا لمعاونتك على الاحساس بأنك في وطنك".

وابتسمت دومني للشاب الذي ضحك بصوت مرتفع وقال:

"بول... يجب أن تحافظ جيداً على اقحوانتك البيضاء هذه، والا سرققتها منك، هل توجد لها مثيلات كثيرات في انكلترا؟"

ابتسم بول قائلاً:

"تستطيع ان تذهب الى هناك في مهمة، وحينئذ ستري بنفسك لكنني لا أظن أنك ستجد أخرى مثل دومني تماماً".

وضرب نيكوس بيده على المائدة زهواً فأنبتته أمه

على تصرفه الذي اهتزت له الأطباق وأدوات المائدة، وقالت:
"إذا تصرف كصبي، فسيعتقد بول أنك غير لائق بعد لمركز هام في العجل".

وقال بول بتؤدة:

"نيكوس في حالة معنوية طيبة صوفيولاً، وأنا استمتع بسماع الخيالات التي يمتلئ بها الشباب".

واهتزت أهداب الكسيس الطويلة فوق وجنتيها بينما كانت النظرة التي رمقت بها بول تخفي ضحكا غامضاً وهي تقول:

"أنتك لم تصل بعد إلى الشيخوخة يا بول، إن لك خيالاتك أيضاً".

وتقلصت أصابع دومني حول كأسها، ذلك أنها أحست أن الكسيس بها لها من حاسة القطة، تبينت أن بول تزوجها عن جموح خيالي وليس عن عاطفة، بول... شقيق الزوج... الغني... الجذاب... الذي لا بد أن تكون الكسيس نفسها قد حركت خياله.

وقالت كارا خالمة:

"أنا أحب كل تلك الحكايات الخيالية والخرافية، إن بيت بول يبدو لي دائماً ذا طابع أسطوري وهو يقع شامخاً فوق صخرة النسر المظلة على البحر".

وقال نيكوس مازحاً في مودة:

"وهل تتصورين دومني الأميرة الأسيرة؟"

وانكأت كارا على المائدة، واسندت ذقنها إلى يدها، وابتسمت قائلة:

"بل إن دومني تشبه البجعة المسحورة التي خلعت رداها لتستحم كفتاة، والتي اضطرت لأن تتزوج الرجل الذي سرق رداها البعجي".

ورمقت العمة صوفيولاً ابنة أخيها بنظرة حادة، وصاحت:

"عم تتكلمين أيتها الطفلة؟ هل ترى يا بول؟ إنها تعيش

في عالم وهمي:

وأفرغ بول ما في كأسه وقال:

"كارا في السادسة عشرة... طفلة".

ولكن دومني لمحت بريق الغضب في عينيه، كانت أخته غير الشقيقة الوحيدة التي تملك كل عواطفه، وتساءلت دومني اذا كان يجب أن تعيش معهما، كان من الواضح ان كارا ليست سعيدة في حضانة عمتها، ذلك أن نيكوس كان يظهر لها من الاهتمام المختفي وراء مزاحه معها أكثر مما كانت أمه تحب، بالإضافة الى وجود الكسيس، التي لم يكن مزاحها في رقة مزاج الشاب او براءته.

وقررت دومني ان تقترح على بول دعوة كارا لقضاء بعض الوقت معهما، وإقامتها كان يمكن أن تمتد لتصبح دائمة، اذا وجدتتها اقامة سعيدة، وكانت دومني متأكدة من ذلك، اذ كانت كارا متدفقة الحيوية، وموسيقية، وكان بيت بول بحاجة الى قفزات الشباب في أرجائه، وإلى ضحكات تعيد النبض اليه، ذلك النبض الذي خلا منه خلال السنوات القليلة الفائتة.

وأفاقت دومني من شرودها عند ذلك الحد، لتجد الكسيس تحملق فيها وابتسامة صغيرة على شفثيها، ثم تحول بصرها ناحية بول، ولمحتها دومني تزم قمها الأحمر وهي تقيس بعينيها عرض كتفيه، ثم ترتفع بهما الى الشفتين المطبوعتين بالتصميم، وبالحدة، وبالرغبة.

وعندما نهض الجميع من حول المائدة، لتناول القهوة على المقاعد المرسومة تحت الأشجار، أحست دومني بأن الكسيس تراقبها وبول يحيط كتفيها بوشاح من الدانتيل، وينزع من شعرها حشرة صغيرة استقرت فيه ورغم أنها كانت لمسة خفيفة، لكنها كانت تنطق بالتملك ليشهدا الجميع... تملكها من شعرها الأشقر، حتى قدميها الصغيرتين في

الحذاء الفضي... هي الانكليزية الباردة الرقيقة... كانت ملكا للزوج اليوناني المستبد.

وتوترت الكسيس اذ رأت بول يوجه دومني الى المقاعد الأكثر انعزالا.

وقال نيكوس بتكاسل وهو يمد ساقيه الطويلتين فوق سور الحديقة:

"أنت نشطة أكثر من اللازم يا الكسيس، ولكني أحب الموسيقى التي تعزفها كارا".

عادت الكسيس تقول بنفاذ صبر:

"أوه، هيا بنا، سيكون لدينا متسع من الوقت للجلوس وسماع الموسيقى عندما تكبر، الآن أفضل الرقص، وفرقة الموسيقى في الملهى جيدة للغاية".

وقالت دومني وقد خفق قلبها لدى سماعها من الكسيس أن باري ربما يكون قد ذهب الملهى:

"أنا أفضل الذهاب..."

وقال بول مرعفاً:

"حسناً سنذهب إذا لم تكوني متعبة".

وبمرح انفلتت دومني من بين ذراعيه وهي تقول:

"وهل يمكن أن يصاب الإنسان بالتعب في اليونان؟"

ثم ذهبت مع الفتاتين لإعادة تنظيم شعرها، ولاحضار وشاح، بينما رفضت العمه صوفيولا الانضمام الى المجموعة، معلنة أنها تخطت عمر الذهاب الى الرقص. وضحك نيكوس قائلاً:

"نراك في الصباح".

ثم انحنى وقبل وجنتها، فأمسكت بكتفيه لحظة، ونظرت اليه بشغف، ثم تركته يذهب، دافعاً بابنة خاله داخل سيارة ذات سقف منخفض وكانت الكسيس على وشك الدخول في سيارة بول، لكن نيكوس أمسكها من خصرها. وقال مازحاً:

"سركبين معنا، مازال بول ودومني في مرحلة الرغبة في الانفراد".

قالت الكسيس متجمدة وهي تشير الى سيارته:

"سنتحطم في هذه الحشرة".

٩ - شال الياسمين

سبق لدومني ان استمعت الى الموسيقى اليونانية القديمة في أثينا، لكنها تبينت أنها لم تكن شيئاً يذكر بالمقارنة مع سحر الأنغام التي عزفتها كارا. وكانت كارا تغني بنعومة تارة باليونانية، وأخرى بالانكليزية. وسرت رجفة في أعماق دومني مع نهاية كلمات الأغنية الحزينة.

"لا أستطيع أن أموت إلا إذا كنت بجانبها أيها الوجه الروحاني، أيها الملاك، مع آخر أنفاسي قبلني حتى الموت". وأحاط بول كتفي دومني بذراعه في قوة وسألها:

"هل تشعرين بالبرد؟"

فهمست وهي تشعر كأن اصبع القدر تسالت خلال ظلمة الليل لتتسرع من خفقان قلبها تحت يد بول:

"كلا، أنها الموسيقى، وتلك الأغنية الصغيرة الحزينة".

وقفزت الكسيس واقفة على قدميها وقطعت روعة الفناء قائلة وبريق غريب في عينيها:

"دعونا نذهب جميعاً الى ملهى "القناع الفينيقي" لفرقص... سيكون ذلك أكثر بهجة من الجلوس هنا والاستماع الى موسيقى كارا الحزينة، لا بد أن آل "فانهوزن" هناك وربما يكون باري سوتيرن انضم اليهم، انه يحب الرقص".

ودفعها نيكوس وهو يقول:

"تفضلني يا سيدتي".

واستدار ليلقي بابتسامة الى بول قائلاً:

"نسبر أمامك يا ابن الخال، النجوم منخفضة الليلة حتى يمكنك تقبيلها".

وقالت دومني وبول يوجه السيارة في اتجاه الميناء:

"إنها جميلة، هذه النجوم، لم أكن أعرف أن النجوم يمكن أن تظهر ضخمة هكذا، أستطيع أن أخطف واحدة لنفسى".

وسأل بول:

"هل تعتقدين أنك ستحبين الحياة في الجزيرة؟"

واستنشقت دومني عبير الأزهار النامية فوق الهضاب، ولم تستطع أن تنكر تجاوبها مع سحر أنديلوس الأسطوري، وقالت مبتسمة:

"أجل يا بول، الجزيرة ساحرة، مكان مناسب للنسيور والأفاعي".

وقالت وأصابعها تداعب حقيبة يدها:

"فكرت يا بول أنه سيكون لطيفاً إذا أقامت كارا معنا فترة، أنا على ثقة بأنها ستسر بذلك، إنها متعلقة بك للغاية، ثم أنني أجدها شخصية ممتعة".

ولم يرد لمدة دقائق، ثم قال:

"أعرف أنك تحبين كارا، ولكنني أعتقد أن دافعك هو خوفك أن تكوني وحدك معي".

قالت وهي تشر بنظراته مصوبة نحوها:

"أنك لم تفكر في أن تجعلني أسيرتك".

وكانت تجلس بجانبه تماماً، ووشاها حول كتفيها، وقد تدلى من أذنيها الغرط ذو القلب اللؤلؤي الذي أهدها لها. وقال بول بركة:

"هل من الضروري أن نتحدثي بهذه الطريقة المأساوية

يا حبيبتي؟"

وأحتقن وجهها غضباً وهي تقول:

"لك أن تتظاهر أمام الآخرين بأنك الزوج المفرم يا بول، ولكن لا تفعل ذلك عندما نكون بمفردنا، دعنا على الأقل نكون صادقين في أن وجهي وجسمي هما كل ما تريد، أما الانسانة داخل هذا الجسم فلا تهك أبداً، انني أشك أنك تعرف شيئاً عن تلك الانسانة، ما إذا كانت عندما تزوجتك تهتم بآخر أم لا، انك لم تفكر أبداً في أن تسأل، هل فكرت يا بول؟ شيء لا يهتمك ما دمت قد حصلت على ما تريد".

واقتربت السيارة من الميناء، وعلى بعد حوالي نصف ميل كان يقف يخت تنبعث منه أصوات الموسيقى والضحكات، وبهدوء سأل بول:

"هل كنت مهتمة بشخص آخر؟"

وتفحصت دومني جانب وجهه، كان في كمال الفن الاغريقي، ولكنه أيضاً كان بارداً وجامداً كالرخام الذي نحت منه الاغريق تماثيلهم، وكم تلهفت أن تعلن بأنها كانت تهتم برجل آخر. وانها لم تكف عن الاهتمام به، وأنها منحت كل العواطف التي لن تستطيع أبداً أن تمنحها سواه.

ولكنها حتى في انفعالها وغضبها... كان لخوفها من بول اليد العليا، واستدارت جانباً لتقول ببرود:

"وما الذي يمكن أن يعينك في ذلك؟ ما كنت لتهتم بمشاعري، انك مخلوق من حجر".

قال ببطء:

"ليس تماماً، الرجل المخلوق من حجر لا يحركه وجه أو جسم، ولا يجرده برودهما".

وارتجفت... كأنه لمسها بكلماته. وأحكمت وضع الوشاخ فما الذي يتوقعه بول؟ ليس الحب بكل تأكيد، من امرأة منحت نفسها لتتخذ أسرتها من الفضيحة، كلا، انه لا يتوقع

منها العاطفة، ولكن حدث ذات ليلة في أثينا أنها تيقنت أن يول يعيش منطوياً معزولاً عن الناس، وأنه يعاني وحدة غريبة، كان في السادسة والثلاثين من عمره، ولكنه كان يبدو أحياناً أكبر من تلك السن بكثير.

وعادت دومني أحداث تلك الليلة بوضوح، كانا قد أمضيا اليوم كله في السباق، حيث بدأ يعاني الصداع وتأثرت هي لمعاناته، وتعجلته العودة إلى الفندق، حيث تناولا عشاءهما في شرفة جناحهما، ورغم أنهما لم يتحدثا إلا قليلاً، ولكن شيئاً من اللفة كان يقربهما، وعندما ذهب إلى غرفته، وبقيت هي وحدها في غرفتها، سمعته يزرع الغرفة ذهاباً وإياباً لأكثر من ساعة ٠٠٠ ذهاباً وإياباً ٠٠٠ مثل نمر في قفصه، بينما بقيت هي في فراشها قلقلة تتساءل إذا كان ضميره هو الذي يؤرقه، وتسربت حلقات دخان سيكاره إلى غرفتها. ومرة أو أكثر همت بالنهوض لتذهب إليه، وكانت يدها على الغطاء، وعلى وشك أن تقذف به، عندما انقطع صوت خطواته، وسمعته يأوي إلى فراشه. وتبينت من الخطوط العميقة على صفحة وجهه صباح اليوم التالي، أنه لم يقدر على النوم وبخشونة عانقها في ثوبها الحريري، وسحق السؤال المهذب عن فمها. وضحك بدون مزاج قائلاً:

"أذن سمعتني وأنا أزرع الغرفة".

ومن جديد انتزع عنوة ما لم يكن من الممكن أن تمنحه إياه برضاها. والآن ٠٠٠ والسيارة في طريقها إلى الملهى، التفت يول ليواجهها وقد أسند مرفقه إلى عجلة القيادة، وقال:

"يمكنك أن تأخذي كارا للاقامة معنا، إذا كنت تحبين ذلك، ولكن ستحزن الفتاة لو علمت أننا نتقاسم شهر عسل مر".

واهتزت دومني للطريقة التي تكلم بها. وقالت محددة:

"ألم لعب دوري بتعقل حتى الآن؟ انني أحب لكارا أن تقيم معنا ليس لمصلحتي فحسب، ولكن لأنني أشعر أنها

ليست سعيدة في بيت عمك. لا بد أنك تشعر بذلك يا بول".

وهز رأسه قائلاً:

"منذ تركت عمتي، أصبحت متعلقة للغاية بنيكوس ٠٠٠ ومن الأفضل لكارا أن تعيش معنا، من قبل كنت غالباً ما أتغيب عن الجزيرة، ولذلك كان بيتي موحشاً لها، الآن تغيرت الأمور، الآن لي زوجة، أجل، لكل الاعتبارات، أدعو كارا للاقامة معنا".

قالت دومني يهدؤ:

"إنها تحبك يا بول، ولن افعل شيئاً يمكن أن يدمر ذلك الحب فانا لست منتقمة".

وربت على شعرها، وبدأ فمه خلال لحظة رقيقاً وهو يقول:

"آه، كلا، أنت حساسة إلى حد التطرف، ولذلك تجدين من الصعوبة أن تفهميني، ربما بمرور الوقت ستفهميني".

وداعبت أنوار الملهى وجه دومني وهي جالسة في السيارة، وخفق قلبها، نصف هذا الخفقان كان تهيباً، ونصفه الآخر كان شوقاً مستتراً لأن تجد باري في الملهى، ولأن يرقصا معا. ونزلت من السيارة، وسمعت خلفها صفقة الباب القوية، ثم أحست بيد بول على مرفقها وهما يصعدان سلم الملهى، وفي الداخل قدمت له فتاة قناعاً أسود، وقدمت لدومني قناعاً ذهبياً. وأطلقت دومني ضحكة منفعلة وهي تضع قناعها، وقالت:

"أحسن في هذا القناع كأنتي فتاة من القرن السادس عشر". ولمحت بريق النمر في عيني بول من خلال القناع الأسود، واقترب ثفره عن ابتسامة وهو يسير معها داخل الملهى، حيث كان البعض يرقص "الفانس"، والبعض الآخر جالساً في خلوة يتحدث، وتلفتت دومني حولها، وقد انفرجت شفاتها، واحتبست أنفاسها في حلقها عندما رأت شخصاً طويلاً، عريض الكتفين، يشق طريقه خلال الراقصين، كان قناعه

قرمزيا، وكان من المحتمل أن تعرفه في أي مكان، وسط الزحام، بسبب رأسه الذي يشبه رأس الأسد وحياهما. ثم سأل بول:

"هل تسمح لي بأن أرقص مع زوجتك، ياسيد ستيفانوس؟"
ورد بول بفتور بالموافقة، وهو ينسحب، بينما كان باري يسحب دومني داخل حلبة الرقص وقالت دومني لنفسها أنه الدخان الذي أغشى عينيها. عندما تلاشت سنوات البعاد، وتحركت هي من جديد على أصوات الموسيقى مع باري. ولمدة لحظات ظلا يرقصان بدون كلام، وهما يدوران كما لو كانا وسط السحاب، وأخيرا همس باسمها، وقال:

"دومني... لقد أوشك قلبي أن يكف عن النبض عندما ظهرت في الشرفة عصر اليوم. كارا أخبرتني أن أخاها تزوج فتاة تدعى دومني. ولكني لم أصدق، لم أكن أريد أن أصدق أنها أنت... ليست دومني التي تخضني."

وامتلأت عيناها بالدموع وهو يتكلم، وتعثرت، فأعانها باري. وأرعبها ذلك، إذ كان بول يتحدث مع الكسيس وكانت توجد امرأة خلف البار تعكس حلبة الرقص بمن فيها من الراقصين وابتعدت بسرعة عن باري، وهمست وقد تحولت فرحتها بوجودها معه إلى خوف:

"يجب أن نأخذ حذرنا..."

واندست أصابعه في خصرها وهو يقول:

"لكني يجب أن أتحدث معك على انفراد..."

وتغلغل عيناها في عينيها، وبدأ فمه خطيرا - أرادت أن تضع يدها على شفتيه، أن تجهض الكلمات، ولكنه عاد يقول بنبرات صادرة من أعماقه:

"اني أحبك يا دومني لم أكف أبدا عن حبك..."

أجابته:

"انني متزوجة يا باري، وهذا، وهذا الحديث عن الحب

يجب أن ينقطع..."

قال بخطورة:

"وأنا أريد أن أصرخ به... وسأفعل إذا لم تخرجني معي إلى الحديقة، لتخبريني لماذا تزوجت رجلا لا تحبينه..."

قالت لاهثة:

"كيف... كيف عرفت؟"

وبدأت تحس بالذوار من الرقص، ومن استمرار بقائها مع رجل آخر غير بول، ونظرت إلى زوجها من فوق كتف باري، كان جالسا مع الكسيس... وكان يبدو مستغرقا معها في الأحاديث، حين كانت عيناها مسمرتتين على وجهه من خلال القناع.

وقال باري يتعجلها:

"دعينا نتسحب الآن... ان زوجك منهمك مع الكسيس ذات الاغراء..."

"قالت بخوف... لا يجب أن أفعل ذلك..."

ورغم ذلك كانت بحاجة شديدة لأن تتكلم مع باري على انفراد. ولكن بدا لها ذلك مستحيلا، في ذلك الملهى، وكفت الموسيقى، وبدأت حركة جلوس الراقصين عندما أعلن أن البرنامج سيبدأ، وخبت الأضواء مرة أخرى، وبدأ عزف موسيقى ناعمة، وخرجت من بين الستائر راقصة رشيقة، وتقدمت نحو منتصف القاعة، حيث تركزت حولها الأضواء فبدت أشبه بفراشة كبيرة مشتتة.

ووقفت دومني في الظل بجانب باري، وقلبها يخفق بشدة لقرينه، بينما رفعت الراقصة يديها السمراوين فوق رأسها وأخذت تدق بأصابعها على الصاجات، وأسرعت الموسيقى، وبدأت ترقص وكانت دقائق الصاجات أشبه بصوت قواقع البحر تفرع بعضها بعضا، وتمايلت الراقصة إلى الأمام، وإلى الخلف، حتى لمس شعرها الأسود الطويل

الأرض... واستحوذت على الانتباه وتمكن شخصان أن يتحركا إلى الخلف في الظلال من الأبواب الزجاجية على الحديقة... وكان الرجل يتعجل المرأة بيدين من الصعب انفعالهما.

وقال باري ضاحكا وهو يمسك بدومني:

"تعالى هنا بين الأشجار... في ظلالها ووسط شذاها..."

وارتجفت من كلماته... ومن لمساته وقالت:

"لا تفعل... سأعود ثانية إلى الداخل عندما تسكت الموسيقى..."

قال بصوت غاضب، وغبور:

"هل أنت خائفة من زوجك؟"

"كلا... ليس ذلك تماما..."

"ماذا إذا؟ جاذبيته المستبدة؟ هل هذا ما لم تستطعي مقاومته؟"

وأمسكها من كتفيها بقوة وعاد يقول:

"يجب أن أعرف لماذا تزوجت بول ستيفانوس، لماذا يا دومني، في حين كان مفهوما بيننا، بدون كلمات، أننا في يوم ما سننزوج؟"

"في يوم ما يا باري؟ لقد رحلت، ولم تكتب أبدا، اعتقدت أنك نسيتني..."

"ليس هذا صحيحا، لقد تعاهدنا على الانتظار في تلك الأمسية التي سبقت رحيلي، وأنت تعرفين أنني كنت أعني ما أقول عندما أخبرتك أنني سأعود إليك، كنت صغيرة يا دومني، وكنت شديدة الاعتداد بحريتك، وكنت أريد أن أفعل الكثير بحريتي قبل أن أتزوج، كنت أريد أن أحقق في لوحاتي ما فعله رجال مثل "رودان" في الحجر كنت بحاجة إلى الوحدة المطلقة أثناء عملي..."

وسألته وهي تنظر في وجهه القريب منها:

"وهل نجحت يا باري؟"

قال وأصابعه تداعب خدها:

"ذهبت إلى أماكن عديدة، وهنا في اليونان وجدت الضياء باهرا حتى أنني لم أستطع التوقف عن الرسم..."

وساد بينهما صمت لم يقطعه سوى صوت الموسيقى المصاحبة للراقصة:

وقال باري:

"قدامى الاغريق كانوا دائما يصطادون العصفير في شباك، وكانوا أيضا يعشقون مذاق العسل المر..."

"هل هذا هو تعريفك لزواجي؟"

"لست سعيدة مع الرجل... أعرف ذلك... رأيت عينيك... وأعرف كيف تبرق زرقتهما عندما تكونين سعيدة..."

"السعادة ليست كل شيء في الحياة يا باري..."

ورفع ذقنها... وقال بخشونة:

"الدموع جعلتك أجمل مما أتذكرك، ما الذي بينك وبين هذا اليوناني؟ حب أم كراهية؟"

"كل ما أستطيع أن أجيبك به أنه يقف بيني وبينك يا باري، أنني ملكة، انه زوجي..."

"وهل عرفت معه لحظة سعادة منذ أصبح زوجك؟"

"أجل، آه... تبدو مصدوما يا باري كما لو كان ذلك أمرا مستحيلا ولكنه ليس وحشا..."

وأغضت عينيها وقالت وقد عاودها القلق:

"يجب أن ندخل... الموسيقى توقفت، والناس تصفق..."

وحاولت أن تتخلص منه ذلك أن كل همسة، كل ظل، كل ثانية كانت تقضيها في الحديقة معه، كانت تضاعف من دورتها ثم قالت:

"ستحضر الحفلة مساء غد وسنرى بعضنا البعض وسنرقص معا..."

وقال وأنفاسه في وجهها:

"دومني... أيتها الصغيرة الحقا... أنا وأنت لا يمكن

أن نكون مجرد صديقين أبداً، خلقنا لتكون متقاربين أكثر من ذلك..

قالت بيأس:

"ما كان، لم يعد له وجود الآن.. ألا تستطيع أن تدرك ذلك؟"
قال باصرار: كلا، كوني ناضجة يادومني، إذا اعتقدت...
قاطعت قائلة:

"وإذا اعتقدت أنت، أنني يمكن أن أعيش في عالم من الأحلام، وأتظاهر بأنه لا وجود لبول... فأنت مخطيء للغاية.."

وبعينين عاصفتين التقت بعينه وهي تقول:

"انه يوناني... ومستبد للغاية... وما من شيء يمكن أن يلغي حقيقة كوني تزوجته.."

تكلم باري بعصبية قائلاً:

"أنت ملكة؟ لقد عرفت ماذا يعني ذلك لي..."

قالت مغلوبة على أمرها:

"أنني أنتهي اليه... هذه حقيقة.."

ورفع وجهها اليه، وتأمل القناع الذهبي، وقال:

"أجل... انه صاحب حق... ولكني أملك شيئاً آخر.."

سألت مرتجفة:

"ماذا تملك؟"

"أملك قلبك يا دومني، أنا متأكد من ذلك.."

وتجمد كل شيء حينما نطق بذلك، حتى الأشجار والثمار بدت كأنها توقفت عن الحركة لتصفي الى لحظة خلوة، خطيرة، تجمعت خلالها الذكريات، ووعود الشباب، وأحلام الحرية، وأحست دومني بلمسات اليدين التي اعتادتها، واغرورقت عيناها بالدموع، وأحست برغبة عارمة في أن تفضي لباري بكل شيء، وأن تقول له: "خذني بعيداً... توجد مراكب في الميناء لـ لايجار... ونستطيع أن نكون في

الصباح على بعد أميال... خذني بعيداً يا باري... وسنعود الشابين المنطلقين كما كنا من قبل.."

وارتفع صوت باري يقول:

"لماذا تزوجته يادومني؟ أعرف أنه وسيم وأنه يملك، ولكن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يكون دافعك إلا إذا كنت أحببته، أخبريني يادومني.."

"أنا... أنا لا أستطيع أن أخبرك... السبب يتعلق بشخص آخر.."

"رجل؟"

"أجل.."

"ماذا حدث لك يادومني؟ ما الذي غير الفتاة المرححة الجميلة التي أحببت؟"

وهزت رأسها بدون كلام... ثم انفلتت، وأسرعت بدخول الملهى، وكانت بعض وريقات نبات ياسمين العسل قد علقت بشعرها... فأخذت تنفضها، ولكنها لم تكن تعرف أنها علقت أيضاً بوشاحها..

ووجدت الناس ترقص من جديد. تفرست في الراقصين: اثنان منهما جعلتا الباقيين يظهران متوسطي القامة، بول ستسما، والكسيس معه. ثم أحست بيد على ذراعها، والتفتت لالتقي بعيني كارا اللتين كانتا تتفحصان شعرها ووجهها، ثم مدت كارا يدها ونفضت لها وشاحها وثوبها، وابتسمت قائلة:

"هجرني نيكي ليرقص مع سوزي فانهوزن، وبول يرقص مع الكسيس ولكن لا تهتمي.."

ردت دومني:

"أنا لا أهتم.."

ثم لمحت وجه كارا المقنع يعبس، بينما اتجهت عيناها ناحية الباب الزجاجي الذي دلف منه باري سوتيرن. ونظر الى دومني وكارا.

ورغم أنه هو ودومني كانا مقنعين أحست هي أن كارا
الواقفة بجانبها رفعت عنها القناعين، وبطرف الحذاء أخذت
كارا تدوس الوريقات التي نهضتها عن ثوب دومني، لقد
عرفت أن زوجة أخيها وباري كانا معا في الحديقة، ولكن
ليس كغريبين كما كانا يتظاهران.

١٠ - الكهف الذي سقط

لم يعمل بول طوال الاسبوع الأول، وأمضيا أيامهما على
الشاطئ، المنعزل تحت التلة، وسط مياه البحر الزرقاء، وكانا
يسبحان ويبحران في زورق صغير، وبدأ لدومني خلال هذه
الأيام والليالي التي قضتها وحدها مع بول، أنه يرمي إلى محو
كل ذكرى تقاسمتها مع باري أو مع سواه وذلك بعدما أعطاهما
باري إحدى لوحاته فقامت بكل براءة تهديها إلى بول، وما
هي سوى دقائق حتى علم بول أنها عرفت باري في انكلترا
عندما كان شابين وأنها أحبته حباً عذرياً في ذلك الوقت.

وعلى الجانب الآخر من المركب، جلست تراقب بول،
بكتفيه العريضتين، وشعره الأسود المجدد، وأحست بلهيب
في داخلها وقفزت لتسبح حتى الشاطئ، وأخذت تمسح
المياه عن عينيها، ثم رفعت يدها لتعصر شعرها وهي تجري
شوق الرمال في اتجاه ظل الكهف حيث تركا سلة الطعام بعيداً
عن لفحات الشمس.

ولحق بها بول، وأقبل من الشاطئ في اتجاهها، ومن خلال
أصداها راقبته في ملابس البحر، ووجدتها تقطع شرائح
البطيخ الأصفر المثلج، فقال وهو يجلس بجانبها، ويأخذ
شريحة:

"اني مستعد لذلك!"

وانهمكت أسنانه البيضاء في أكل الفاكهة الذهبية، بينما كانت دومني تأكل شريحتها وقد دفنت قدميها العاريتين في الرمال.

واستقر نسر فوق التلال وقد فرد جناحيه، ووضع بول شريحة البطيخ جانباً، حتى يتسنى له أن يراقب طيران الطائر الكبير واتسعت ابتسامته وهو يتأمل جناحي النسر، وقال:

"رائع... تماماً مثل ما جاء في المثل... هل تعرفينه يادومني؟"

وهزت رأسها بالنفي، وكانت تفكر في أنه متوحش، وعنيف، تماماً مثل النسر الذي يبحث عن فريسته.

وابتسم بول قائلاً:

"المثل يعدد عدداً من العجائب... من بينها نسر في الجو... وسفينة وسط البحر... ورجل مع فتاته..."

"ياله من أمر ظريف... هل لك في فطيرة باللحم؟"

وانحنى أمامه لتصل إلى سلة الطعام... وامتدت يده إلى خصرها وهو يقول:

"أجل، اطعمي الوحش، فينام لمدة ساعة، ويمكنك أن تستمتعي برؤية الأسماك الملونة، والبحث عن الأعشاب المرجانية..."

واحتقن وجهها للسخرية في صوته، وناولته فطيرة باللحم مع غلبة الزبدة وبعض شرائح البندورة واتكأ على مرفقه، وانطلق يأكل وهو ينظر للبحر. وسكبت دومني القهوة وأضافت إليها العسل البري الذي كان بول يحبه، وأخذ الفنجان، ورفعها نحوها قائلاً باليونانية:

"في صحتك..."

وردت على تحيته بالانكليزية ثم أشاحت عنه بوجهها وهي تشرب القهوة، وتأكل غذائها. كانت صحتها تهمة لأمر

واحد فقط. كانت تعتقد أنه يريد منها أن تمنحه طفلاً. وما كاداً ينتهيان من طعامهما، حتى أغلقت سلة الطعام، وتركته لتلهو في حوض وسط الصخور، حيث كانت الأسماك الصغيرة تقفز بين أصابعها، وتمدد بول غير بعيد عنها فوق الرمال، ظهره للشمس ووجهه بين ذراعيه المعقودتين، ولم تكن تدري ما إذا كان مسترخياً ليأخذ غفوة حقاً، أم أنه كان هداع النمر الذي يفكر في مكيدة لفريسته.

وأخذت دومني تعبت بحبات الرمال. وهي تفكر في الطريقة التي طوخ بها بول بلوحة باري قائلاً:

"أنا لا أهتم بوجودها في بيتي... يجب أن تفكري يا عزيزتي في شيء آخر هدية لي..."

وفي الليلة الماضية، من شدة غضبها منه، أرضت نفسها بإغلاق باب غرفتها في وجهه، وتمددت متوترة، تتنصت إلى صوت حركاته في الفرفة المجاورة، ولكنه لم يحاول أن يعالج بابها. وانتهى بها الأمر أخيراً إلى الاستغراق في النوم، ولم تستيقظ إلا على صوت ليتا وهي تفتح الستائر.

ولم تكن ليتا بالمرأة التي تبتسم كثيراً، ولكن ابتسامته لفت بقمها وهي تتأمل دومني وقد افترش شعرها العسلي الغزير الوسادة. وبدأ لون جلدها العسلي الشاحب منسجماً في تناقضه مع لون قميص نومها الأزرق. وجلست دومني في سريرها، وقالت وهي تراقب ليتا تسكب لها شاي الصباح:

"كم تبدو الشمس رائعة!"

"هذه هي أجمل أيام الجزيرة طقساً ياسيديتي... العنب ينضج ويغمق لونه والجبال تمتلئ بالمواشي وبالأغنام..."

وسألت دومني وهي ترشف الشاي الساخن:

"هل ولدت في الجزيرة ياليتا؟"

"أنني من الجبال يا سيدتي، مكان قطاع الطريق في الماضي، والأساطير الخرافية، تعرفين طبعاً أن الدماء الرومانية

تسري في عروقي ؟

وأومات دومني وهي مأخوذة بعض الشيء بما كان يبدو على ليتا من معرفتها للأشياء الخفية في الحياة، وقالت ليتا :
"لقد اعتدي على الجزيرة خلال الحرب ياسيدتي عندهما كنت صبية، وأحرقت المزارع، ونهبت غابات الزيتون، وأخذت الفتيات أسيرات".

وشهرت دومني برجفة وهي تحقق في خادماتها، وأضافت ليتا بسرعة:

"كنت محظوظة، إذ خبا جدي كل أفراد الأسرة في كهف وسط الجبال، بينما حارب أبي وأخوتي، ولم يكن ذلك آخر ما عانته اليونان، فقد قامت حركة التمرد، ومن جديد المتاعب والمعاناة والسلب والنهب".

قالت دومني بركة:

"لأبد انها كانت مرحلة حزينة ومفرقة لكم جميعا".

ابتسمت ليتا بطريقتها الجادة وقالت:

"ولكنها انتهت". والآن هنا في الجزيرة يجد الناس السلام والعمل، والطعام الكافي".

وتناولت دومني بعض الحلوى، ثم ضحكت قائلة:

"بدأت أحب ألوان الطعام اليوناني يا ليتا. جو جزيرتكم يفتح الشهية".

ورحمت ليتا سيدتها بنظرة متفحصة، ثم التقطت فنجان الشاي الفارغ ونظرت فيه فقالت دومني:

"هل ترين فيه أن أمامي يوماً سعيداً؟"

وارتجفت أهداب دومني وهي تلقي نظرة سريعة على الباب المغلق بينها وبين بول، بينما قالت ليتا وهي تتمعن في أوراق الشاي:

"سيحدث شيء مزعج. أرى ذلك بوضوح".

"عاصفة؟"

"سيحدث شيء غير سار ياسيدتي".

واحتد صوتها وهي تستطرد قائلة:

"سيحدث هذا اليوم".

وسكتت عن الكلام عندما سمعت محاولة لفتح الباب المغلق واستدارت لتسمع تكرار الصوت، واحتقن وجه دومني تحت وهج نظرات ليتا المتعجبة، ثم قالت:

"افتحي الباب يا ليتا".

وحيت ليتا السيد تحية الصباح، ثم انصرفت من الغرفة على عجل، وبقيت دومني في مكانها وقد شحبت وجهها بعض الشيء وهي تنظر الى بول، كان يرتدي قميصاً حريراً غامقاً، وبنطلوناً رمادياً، وقال وهو يشير ناحية الباب الذي فتحتة ليتا:

"افعلي ذلك ثانية يا فتاتي، ولن أنتظر حتى تسمح لي خادمك بالمثل بين يديك، سأحطم الباب".

وكان يبدو غاضباً بما فيه الكفاية لأن يفعل ذلك، أما دومني فقد تملكها رغبة جامحة في الضحك، ورفعت يدها وضمت على أصابعها عندما اقترب من سريرها وبدأ كقط هائج، ووقف يتأملها، ولمحت نظراته تنزلق من كتفها الى الشيفون الأزرق الذي يغطي صدرها. وأسرعت تحجب نفسها بالغطاء، فرفع حاجبه لتصرفها، ثم أطلق ضحكة قاسية عالية كشفت عن أسنانه البيضاء. وقال:

"إغلاق الابواب، والتظاهر بالاحتشام من شأنه أن يضاعف حرارتي لا ان يخفصها".

وفي اللحظة التالية كان جالسا على حافة السرير، محملاً فيها. كان وجهه خالياً من التعبير، لم تعرف دومني ما اذا كان متضيقاً او مسروراً، ثم قال وعيناه فوق الخاتم الذهبي في يدها.

"أنا أدرك جيداً يا دومني أنك لا تريدينني، ولكن أخشني

أن تكوني مضطرة الى احتمال نوبات عاطفيتي، وفي أي حال يمكنك أن تؤاسي نفسك أنه سيأتي يوم لن أكون فيه محتاجاً اليك أبداً".

وكان ينطق بكلماته ببرود وسخرية، ووجدت دومني نفسها تحفل منه كأنه صفعها، وأخذت كلماته تتردد وتتردد في ذهنها، وأسلمتها صراخته الصارخة الى حالة من الغضب. وقالت وعيناها تقدحان لهيباً:

"فهجت يابول، أفسدت حياتي لمجرد ارضاء نزوة عابرة في حياتك سحقت كبريائي، وأرغمعتني على الزواج بك، لتمتلكني بعض الوقت لا غير. لقد عرفت دائماً أن هذه هي دوافعك للزواج مني، ولكنني لم أتصور لك قط من القسوة فتصارحتني بها".

وسكنت ريثما تلتقط أنفاسها اللاهثة، قبل أن تقول بغضب مليء بالألم:

"حسناً، وشكراً على اخباري، الآن لن أهتم بأنه من الخطأ كراهية انسان آخر، سأشعر بأن في ذلك عدالة".

قال بكسل:

"أجل، دعي نفسك تشعرين بأن في ذلك عدالة، شيء يدهش حقاً كيف أن مثل هذا التبرير يمكن أن يريح الضمير".

"أشك في أن لك ضميراً ولكنني أعرف أنك بدون قلب".

وبابتسامة مأكرة تحسس عضلات صدره، ثم انحنى فوق المنضدة بجوار السرير، وأخذ الكتاب الموضوع فوقها، وفتحه وأنطلق يقرأ جملة من رواية مترجمة الى الانكليزية لكاتب يوناني معروف اسمه "نيكوس كازانتزاكيس" وسألها:

"هل في نيتك أن تكتشفي عمق الشخصية اليونانية؟"

أجابت ببرود:

"أنا أقرأ كازانتزاكيس للتسلية، فهذا بالنسبة الي هو الهدف الوحيد من قراءة الروايات".

قال بول بابتسامة باهتة:

"كل شخص أسير ردود فعله في الحياة، لذلك فهو لا يستطيع أن يتحدث بلسان الجمع". كازانتزاكيس يكتب عن الحب كما لو كان سيغدا يغمد في القلب، هل تعتقدون أنه على حق؟

"لا أعرف".

قال وعيناها تضيقان:

"مع أنك أحببت، ألم تحبي يادومني؟"

قالت ببرود:

"أن تقع في الحب، هو أن تسلم نفسك لأهواء، وربما لقسوة شخص آخر، وأنا لن أخاطر ثانية".

وأشار بول ناحية الباب الذي أغلقته في وجهه في الليلة السابقة، وقال:

"هل فعلت ذلك، لأنني طوحت بلوحة سوتيرن؟ ألم يكن ذلك عدم مبالاة فحسب؟"

"عدم مبالاة في مواجهة من؟"

والتفت عيناها. وتراجعت دومني الى الوراء محتمة بوسادتها حينما انحنى بول فوقها، وقرب وجهه من وجهها. ثم نهض وأقفأ. وقال وهو يعيد الكتاب الى مكانه على المنضدة:

"علي أن أذهب لمقابلة شخص هذا الصباح، ولكنني سألتحق بك لتناول الغداء معا على الشاطئ". ساطب اعداد سلة طعام.

"كما تشاء يابول".

وراقبته وهو يخرج من الغرفة، ويغلق الباب خلفه، ووضعت ذراعاً فوق عينيها، وظلت ساكنة عدة دقائق، لكنها لم تذرف الدموع، كان عذابها أعمق من أن تنهمر له الدموع.

وبعد افطار يوناني خفيف من القهوة والفاطير والعسل، أخذت دومني كتابها وخرجت الى الحديقة، حيث جلست

تحت عريشة ومن حولها شجر الفلفل، والصنوبر، ومجموعة من
الورود ذات الألوان الجميلة، والرائحة الزكية.

واستغرقت دومني في قراءة القصة وجاء يانيس حوالي
الساعة الحادية عشرة حاملا سلة الطعام التي أمر بها بول،
ولم تكن السلة ثقيلة، ولكن يانيس أصر على أن يحملها الى
الشاطئ. وكانت دومني تشعر باعزاز نحو خادم بول الجاد،
الذي كان يستطيع أن يذكر كل أسماء طيور الجزيرة وورودها
النامية على جانبي الممر المؤدي الى البحر. ولم يكن هو وليتا
قد أنجبا، وبدا لدومني أنهما بطريقة ما ينظران اليها كطفلة،
وكانا يديران البيت بمهارة، حتى أنه لم يكن لدى دومني ما
تفعله سوى اكتشاف الغرف الكبيرة، والسلالم الملتوية المؤدية
الى مخازن الأمتعة القديمة.

وقالت دومني:

"كم تبدو الجزيرة هادئة وجميلة اليوم يا يانيس".

ووقفت مبهورة أمام منظر البحر. وأشعة الشمس تنعكس
فوقه والرمال والصخور، وابتسم يانيس وهو يرى مدى انبهار
دومني التي أخذ النسيم يداعب خصلات شعرها وصاحت وهي
تشير ناحية البحيرة التي ظهر فيها الدرافيل يقفز كما لو كانت
له أجنحة، ثم يفوص في الأعماق.

"أوه، أنظر هناك يا يانيس".

وكانت دومني تأخذ حمام شمس عندما لحق بها بول على
الشاطئ، لم تسع وقع أقدامه وهو قادم فوق الرمال، لكنها
أحست بظله الطويل فوقها، وعندما جلست ورات وجهه، بدا
لها أنه مرهق وسألته:

"هل تريد الغذاء حالا؟"

"كلا الا اذا كنت تريدان، أعتقد أننا ربما نخرج في نزهة
بحرية أولا".

وقفرت قائلة:

"أنت على حق".

ومن جديد تمهلت عيناها فوق وجهه، وتبينت أنه، يعاني
من الصداع، وأنه كان يتمنى أن يخفف نسيم البحر من حدة
الألم، ولمست ذراعه بأصابع مرتجفة، وقالت:

"بول، ماذا يقول الأطباء عن صداعك؟"

وواجهها بابتسامة ساخرة، وعينين غير مقروءتين خلف
نظارة الشمس، وقال:

"يا عزيزتي... هل أنت فعلا مهتمة بي؟"

"أنا لا أحب أن أرى أحدا يتألم".

ثم سحبت يدها من فوق ذراعه، وقالت:

"أسفة اذا كنت تطفلت".

"سيتلاشى الألم بعد فترة".

وقفز الى الزورق، وفك الرباط ودفعه في المياه، وخلص
قميصه وساعد دومني على القفز بدورها، وظل ممسكا بها
لحظة، وهو يبتسم مثل قرصان اغريقي، وهمس:

"أحيانا، يا أسيرتي الصغيرة، لا أظن أنك تكرهينني".

ورفعت بصرها نحوه، ومن جديد تذكرت الكلمات التي تقوه
بها في ذلك الصباح، وقالت بفتور:

"أنا أبذل ما في وسعي لانقاذ صفتة سيئة. لكنني أعرف الآن
أن عقوبتي ليست مؤبدة".

وضحك وتركها، وقاد الزورق، ولفترة ظلت الدرافيل تجذب
انتباه دومني، وأعادت لعينيها بريقهما، وصاحت ليصله
صوتها خلال مدير المحرك:

"كيف حال صداعك؟"

صاح بدوره من فوق كتفه:

"أحسن كثيرا... الدرافيل تجيد اللعب... هيه؟ انظري الى

ذلك البرونزي اللون".

وكان الدرفيل الضخم كبيرا، حتى أنه استطاع أن يميل الزورق عدة مرات، وأوشك أن يلقي دومني في الماء، وضحكت من أعماقها، ولكن بول حذرهما قائلاً:

"لا يوجد فقط درافيل في هذه المياه".

وكان يقصد سمك القرش، ورفض أن يدع دومني تقفز للسباحة حتى يدخل منطقة الأمان في البحيرة، حيث الأسماك صغيرة جداً، ولا تجذب الأنواع المفترسة.

وعادا إلى الشاطئ، وجلست دومني على صخرة، شاردة تماماً مع أفكارها، فجفت الزمال بين أصابعها، ونهضت وركضت في اتجاه المياه لتغسلها، لكنها أحست بشيء ما يطعن باطن قدمها اليسرى، فأطلقت صرخة ألم.

واضح أنها داست فوق قنفل مائي صغير، وتبينت أن بعض الشوك نفذ تحت الجلد، وكانت دومني تعرف أنها لابد أن تتقيح إذا لم تنزع، وجلست فوق صخرة قريبة، وحاولت أن تنزع الشوك بأظفارها.

وجاء بول بجانبها متسائلاً:

"ماذا فعلت؟"

وأخبرته، فركع أمامها، وأمسك بقدمها الصغيرة في يده... وبعد لحظة نظر إليها قائلاً:

"لا بد من نزع الشوك بملقاط... لكن إذا سرت على قدميك، فستتفلق الاشواك داخل جلدك، تعالي، سأحملك حتى البيت".

وضحكت بعصية وهي تتبعد عنه قائلة:

"لن يمكنك أن تصعد بي التلة يابول، ازداد وزني منذ جئت إلى اليونان".

لكنه أحاطها بذراعيه، وحملها بسهولة وسألها:

"أمازلت تشعرين بالتوتر معي يادومني؟"

وعبر بها الشاطئ، ومنه تحت قوس الكهف الموصل

إلى البيت وأحست بخفقات قلبه كالللمسات. وفجأة، وكما حدث في المركب منذ ساعة أو أكثر، أحست في كيانها ضعفًا، وبدأت تدرك حقيقة لم تكن واضحة بعد في ذهنها، ولكنها في المركب استطاعت أن تهرب من رقابة بول في الجانب الآخر، أما هنا بين ذراعيه... فكانت أسيرة. وازدادت ظلمة الكهف وهما يتوغلان داخله، وفجأة، مثل زئير حيوان مختفي، ترددت أصداً من فوقهم، وأصوات ضوضاء مخيفة، وتسمع بول في مكانه، وقد ازداد ضغط ذراعيه حول دومني، التي أمسكت بكتفه العاري بقوة، وغرست دون وعي أظفارها في جلده وهي تقول:

"ما هذا يابول؟"

ولم يجيبها في الحال، لكنه ظل يرهف السمع، وهو يحدث الخلق في وجود الخطر المفاجيء ومن جديد ارتفع صوت شيء يتصدع، واهتزت الأرض، وأوقف بول دومني على قدميها وقال ملهوفاً:

"اركضي يا صغيرتي، الكهف سينقض علينا".

وخفق قلبها وهي تركض. كانت تعرف أنهما على بعد دقائق من الباب الذي يمكن أن ينقذهما من الخطر المحدق بالكهف، ويوصلهما إلى البيت، ومن جديد ارتفعت أصوات التصدع، وكانت دومني تنظر إلى فوق مذعورة، عندما انفتح سقف الكهف وتهاوت الصخور وقذفت بها على ركبتيها، وأرغمتها على إطلاق صرخة، سرعان ما خمدت وسط سيل الغبار والألم.

١١ - وفقدت الطفل . .

كانت غرفة مكتب بول ظليّة، وقد أضفى عليها السقف المنحوت من الخشب، والجدران البيضاء، جواً من الهدوء ولم يكن له صدى لدى الرجل الذي كان يذرّعها ذهاباً وإياباً كالنمر الهائج .

وكان قد مضى وقت طويل منذ أن غير ملبسه الممزقة، وضمد له يانيس جروح يديه، ذلك أن الطبيب كان مشغولاً في الدور العلوي، وقد بدا لبول أنه انقضت عليه ساعات هناك .

وألقي بسيكاره . . . قبل أن يكمله، وخرج إلى الشرفة التي لم يكن يفصلها عن الصخور والبحر الداكن سوى سور حديدي رقيق، كانت النجوم تلمع في السماء، وقد انتشرت في جو الليل الرطب رائحة الصنوبر أشبه بالمسك المعطر، وكانت أنوار مراكب الصيد تبدو على مرمى البصر متناثرة، كالطيور المشتعلة . واتكأ بول بيديه المجرّحتين المضمّدتين على السور الحديدي . ولو كان ذلك يسبب ألماً، فلم يكن يظهر عليه أنه يشعر به . كان يقف منتظراً، وهو يتأمل أمواج البحر تتهاجس عندما تلتقي بالصخور .

وأحس بول بوقع خطوات فوق السجادة التي تغطي أرض الغرفة وشعر بوجود الرجل وراءه أكثر مما سمعه .

واستدار بسرعة ولم يكن من المستطاع رؤية تعابيرهِ، لأن الظلمة كانت كثيفة . وصاح بول باليونانية:

"أخبرني، كيف حالها الآن يا ميتروس ؟"

وألقي الطبيب اليوناني نظرة على الحاجز الرقيق الذي يفصل بين بول ستيفانوس والثلال التي تنتهي بعيداً بالصخور المتحطمة، وقال:

"ادخل يا بول . نستطيع في الداخل أن نتحدث أفضل ."

"ما هي الحقيقة يا ميتروس؟ هل تخشى أن تتحطم روحي تماماً؟ هل ماتت؟"

وأمسك ميتروس بذراع بول ودفعه إلى الداخل وهو يقول:

"لا نستطيع أن نتكلم هنا ."

وأغلق النوافذ، وأسدل الستائر . وصاح أمراً:

"النور يا رجل . . . النور ."

وأضيء نور فوق المكتب، فألقى ظلّاً من زاوية غريبة على وجه بول، أظهرت شموخ وجنتيه، وكانت الندبة داكنة، وحدودها واضحة ومحتقنة .

والتقط بول أنفاسه بصعوبة وقال:

"دومني . . . لم تسترد وعيها، ألم تطلب أحداً؟"

"زوجتك لم تمت ."

وملأ الطبيب كأساً صغيرة، ووضعها في يد بول مستطرداً:

"تعال، اشرب هذا يا صديقي ."

وبهزة من رأسه الداكن رفض، وأعاد الكأس، ثم حملق بعينيه النمرتين في الطبيب متسائلاً:

"ما الذي فعلته بها كل هذه الصخرة؟ هل ستصبح مقعدة؟"

وكان للطبيب وجه طيب، تحت شعر داكن تتخلله شعيرات رمادية ونظر إلى بول، وأخرج سيكارة ووضعها بين شفتيه، وأطلق دخانها، ثم قال في هدوء:

"زوجتك الشابة الجميلة فقدت الطفل ."

ونظر بول الى ميتروس مشدوها ، وقال :
"ماذا ؟ ولكن ، أنا ، أنا لم تكن لدي فكرة ، طفل ؟ انها لم
تخبرني بشيء" .

وتفحص ميتروس بول ، ثم قال :
"ربما لم تكن متأكدة ، عروس شابة ، وبعيدة عن أهلها ، ثم ان
الحبل كان في شهرين فقط" .
"شهران" !

وصمت بول كأنه ينظر الى الورا ، ويعود بذاكرته الى أول
ليلة أمضاها مع دومني ، وخيمت على عينيه سحابة حزن .
وربت ميتروس على ذراعه قائلاً :

"اني أسف ، فهذا الطفل بالنسبة اليك يعني الكثير ، أعرف
ذلك . ولكن الفتاة ستتقلب على الصدمة ، وتستطيع أن تنجب
أطفالاً آخرين ، الوقت امامكما" .

"كلا ، لن تكون هناك فرصة أخرى" . الطفل الذي كان يمكن
أن تحبه ، ذهب ، ذهب مثل السعادة ، مراوفاً ، ولن نعتز عليه
ثانيةً معاً" .

وقال ميتروس بغضب :
"يالها من طريقة يتحدث بها رجل هذه المرأة" . يجب ألا
تخرم من طفل تحبه" .

قاطعه بول قائلاً بحرارة :

"طفل ؟ يا صديقي ، تلك المرأة تكرهني ، تكره رؤيتي ،
وصوتي ، ولمستي ، آه" . انت تبدو مصدوماً ، ولكن أوكد لك
أن هذه هي الحقيقة ، وعندما تعيش مع هذه الحقيقة جنباً الى
جنب لمدة شهرين ، كاملين باستثناء ساعات قليلة عابرة ، فإن
الشك لا يساورك ، انها نظرة في العينين ، رجفة عندما أحاول
اللمس ، حشجة في الصوت تخفي دموعاً لم تكن تعرفها قبل
أن تلتقي بي" .

"انها تزوجتك يا بول" !

"انت يوناني ياميتروس ، وتعرف مثلي تماماً أن المرأة لا
يدخل الحب في حسابها دائماً عند الزواج" .
"أنا أنا أفهم" .

وأطفاً الدكتور ديميتريوس سويزا سيكارتته ، واستطرد
بقول :

"هل لهذا الموقف دخل برفضك إعادة التفكير في قرارك الآخر
ذلك الذي ناقشناه في عيادتي صباح اليوم" ؟
"ليس تماماً ياميتروس" .

ونفض بول من أمام مكتبه ، وخطا نحو الباب قائلاً :
"والآن ، هل أستطيع أن أصعد لأرى زوجتي" ؟

"انها تحت تأثير المخدر يا بول ، وستنام حتى صباح الغد ،
تركبتها في رعاية ليتا ، ولكن تستطيع طبعاً أن تلقي عليها
نظرة" .

وتقدم ميتروس من بول ، ولأنه كان أقصر منه قامه ، تطلع
اليه قائلاً :

"حاول أن تنام يا صديقي ، الفتاة شابة ، وسليمة البنية" .
وستسترد صحتها بسرعة" .

"هل ستأتي مرة أخرى في الصباح ياميتروس" ؟
"بالطبع" .

وتخللت أصابع بول شعره الداكن ، وقال :

"لو أنني تقدمت دومني في الخروج من الكهف ، اذن لتلقيت أنا
صدمة انهيار الصخرة ، ولكني طلبت منها أن تركض أمامي
معتقداً أنها ستصل الى الباب في الوقت المناسب" .
"يجب ألا تلوم نفسك على ذلك" .

وصلا الى الصالة ، فأخذ ميتروس حقيته السوداء ، وسترته
وتصافحا أمام الباب . ثم صعد بول الى الدور العلوي ، ويهدؤ
دخل غرفة دومني ، حيث جلست ليتا على مقعد بجوار السرير ،
تشغل نفسها بشغل التريكو على ضوء خافت . واقترب

بول من السرير حيث كانت دومني ضئيلة للغاية، تائهة بتأثير المخدر الذي أعطي لها عقب سقوط الصخرة فوقها، وفقدما الطفل. وكانت أهدابها الطويلة ترسم خطين داكنين فوق وجنتيها ويدها اليسرى فوق الفطاء، وقد بدى الخاتم الذهبي ثقيل على الاصبع النحيل.

وكان السكون في الغرفة شاملا، إذ كفت ليتا عن تحريك ابر الشغل، وحينئذ قال بول بصوت خافت:

"يمكنك أن تذهبي لتستريحي ياليتا، سأبقى هنا."

وترددت المرأة، ولكن كان واضحا من وجه بول أنه مصمم على البقاء، لذلك خرجت بعدما ألقت نظرة على دومني، ولكنها لم تتوجه مباشرة الى سريرها، بل اتخذت طريقها الى الدور السفلي، حيث أعدت لبول فنجان قهوة تركي داكن، ووضعت على الصينية بعض البسكويت، ثم حملتها اليه. وكان قد وضع مقعدا بجانب الفراش حيث جلس ووضعت ليتا الصينية في متناول يده، ثم تركته وحده مع زوجته النائمة.

وعندما تحركت دومني كانت اشعة الفجر تشق الظلام، وأحست احساسا جبهما بوجود شخص معها، يساعدها على الجلوس لتبذل حلقها الجاف بقطرات من عصير الليمون، كان كل جسمها يؤلمها وشعرت بثقل رأسها. وتساءلت وهمست:

"شكرا".

لم تكن قادرة على رفع جفنيها، لكنها أحست بكتفيه فوقها أشبه بالجناحين واستغرقت في النوم من جديد قبل أن تستطيع التفكير فيمن يكون هذا الشخص، وعندما تنبهت من جديد، كانت ليتا هي الموجودة، ومعها رجل طيب الحيا هو الدكتور ديميتريوس سويزا.

وبعد ثمانية أيام كان يتناقش معها في حالة الاجهاض التي تعرضت لها، وشرح لها أن الصدمة هي التي سببت لها هذه الحالة. وجلست دومني ساكنة تماما، مستندة على

وسائد الأريكة. ففي الحادثة كان أول احساسها بوجود الطفل، ولكن عقلها لم يكن قد تقبل الحقيقة بعد... والآن... فأت الأوان لأن تفرح او تحزن. وقالت بهدوء:

"كان بول يتمنى الطفل، لابد أنه تضايق عندما أخبرته بأنني فقدته."

"أنا متأكد أنه كان سيهتم أكثر لو أنه فقدك."

ورغم أن انكليزية الطبيب لم تكن في طلاقة انكليزية بول، إلا أن دومني فهمت كل كلماته المهذبة، ثم أخذت تتفحص ساكنة يديها المعقودتين فوق ثوبها الحريري الطويل، ونأملها الطبيب وتعجب من رصانتها، فالفتاة اليونانية لابد أن تبكي بحرقة لفقد طفلها الأول ولكن هذه الانكليزية الجميلة الغاترة جلست بعينين جافتين، وقد بدت كأن الأمر لا يحرکها وأشعل ميتروس سويزا سيكارة وهو يفكر في أن الأمر لابد أن يكون كما زعم بول. هذه الفتاة ذات العينين الزرقاوين الغائرتين، والراس الملكي، لم تكن تحب زوجها.

وكانا يجلسان في الشرفة، حيث قدم لهما يانيس الشاي التركي في أكواب طويلة، مع شطائر وفطائر وحلوى، وكان بول قد ذهب في سيارته الى عمته، لكي يحضر كارا، وعندما رأى ميتروس أن دومني تكتفي بشرب الشاي ولا تمهد يدها امتلا طبقها، قال لها:

"يجب أن تحاولي أكل بعض الشطائر، سأأخذك بنفسي."

"لست جائعة يا دكتور."

"ولكنك يجب أن تأكلي يا ابنتي، والا استغرقت وقتا طويلا في الشفاء، هاك شطيرة دجاج، وأخرى بالجبن، وأنا أصر على أن تأكلي."

وكانت طيبة الطبيب ومودته لا يمكن اغفالهما، ووجدت دومني نفسها تأكل، وتتبادل معه بعض انطباعاتها عن

بلاد اليونان، وعلمت منه أنه أرمِل، وله ابن واحد يدرس الطب في أثينا.

وقال الدكتور سويزا مبتسما:

"لن يسره أن يعمل طبيبا في جزيرة، أما أنا، فالعمل يلائمني هنا، أمارس مهنتي في عيادة الاطفال التي تبرع بها زوجك والمرضى الأثرياء مثله يعاونون في دفع نفقات غير القادرين".

"هل تعالج بول يادكتور من صداعه؟"

وكان الطبيب يهم باختيار فطيرة، وظلت الشوكة بين أصابعه على الأقل لمدة دقيقة، وأخيرا بعدما وقع اختياره على القطعة التي يريد اثر تباطؤ لا يقتضيه مجرد الاختيار، رفع عينيه نحو دومني وسألها:

"هل حدثك بول عن صداعه؟"

"ليس تماما... يبدو متضايقا كلما فتحت الموضوع، لأنه قوي للغاية فيما عدا هذا الصداع، لذلك أعتقد أنه يكره الاعتراف بناحية ضعف لديه".

وتشأغل الطبيب بأكل الفطيرة، وبمشاهدة النحل يمتص الرحيق من الأزهار التي تتسلق الجدران، ثم قال فجأة:

"ربما، فيول يوناني للغاية، واليونانيون ليسوا سهلي الفهم انهم أشبه بجبال الجليد التي يظهر منها جزء بسيط فوق السطح ويختفي الأكثر في الأعماق".

همست دومني:

"جبال الجليد يمكن أن تسبب الكثير من الاضرار".

"ولكنها يمكن أن تذوب، فالثلج ليس حديدا".

"أتخيل أن ذلك يحتاج الى درجة حرارة عالية".

وضحكت دومني، وابتسم الطبيب للرتين وللحيوية والجمال التي أضفتها الضحكة على الوجه الذي لم يكن قد عرفه الا مثألما... فأترا... رصينا... ولمعت عيناه، وأدرك أنه أخطأ

في اعتقاده أنها باردة، كم كانت عيناها تعكسان زرقة السماء والبحر، وكم كان فمها لذيذا، لم تكن سوى طفلة، حساسة، خجول، وليست من النوع الذي يستطيع أن يفصح عن مشاعره. وانثنى الى الامام، ونظر اليها مباشرة، وقال:

"لا توجد سوى شعلة واحدة يمكن أن تقهر كل شيء، وقليلون يستطيعون التصدي لها".

"هل هذا لغز يادكتور؟"

"ممكن يا صغيرتي أن نطلق عليه وصف لغز، انه أعقد ما في الدنيا، ولم تفك طلاسمه تماما رغم مرور كل هذه السنين منذ قدمت حواء التفاحة المحرمة لأدم".

وتشابكت يدا دومني، كأن كل منهما تجد الراحة لدى الأخرى... وقالت:

"فهت، انك تتكلم عن الحب يادكتور".

"ألست متفقة معي أنه موضوع ساحر، ياسيديتي؟"

وأشأخت بنظرها بعيدا، وتساءلت اذا كانت في غيبوبتها أقضت اليه بمكنون نفسها، كان طيبا، وناضجا، وكان يذكرها بعض الشيء بالعم مارتن، ولكن أن تفضي لآخر بأسرارها كان راحة وقتية يعقبها الضيق، والندم.

ونظرت دومني الى الطبيب، وأحست من نظرة عينيه أنه يعرف شيئا، هل تراها ذكرت باري خلال ساعات الغيبوبة بعد الحادثة؟

ونفض الدكتور سويزا واقفا، معلنا أن عليه زيارة مرضى آخرين. وعندما أمسك بيد دومني، كان لضغطه عليها معنى، وابتسم قائلا:

"يجب أن نتحدث معا مرة أخرى، قريبا عندما تشعرين على استعداد؟"

"نتحدث عن ماذا يادكتور؟"

"عن الاشياء التي لا نستطيع أن نهرب منها"

يا طفلي، والأشياء المحتملة للولادة... والحب... والموت...
وحدقت فيه بعينين واسعتين، تأهيتين، والتفت عيناه
الداكنتان بعينيها لحظة، ثم أحنى رأسه الرمادي وقبل يدها
وحياها باليونانية ومضى.

وبعد نصف دقيقة خلت الشرفة إلا من وجودها، وجلست
ساكنة تماما، وقد تملك عليها احساس غريب بالوحدة، وكان
البيت كله غارقا في الصمت، كانت فترة القيلولة، التي يخلد
فيها الجميع الى الراحة، حتى الطيور تبدو هادئة منكشمة
فوق الأغصان.

واسترخت دومني في جلستها، وأغمضت عينيها، وسمعت
خفيف أشجار الصنوبر، وهمس أمواج البحر، وبدا لها كما لو
كان طفلها الميت يدق على قلبها، لقد ذهب الحب الذي كان
يمكن أن يأتي به، وأن يمنحه، وانحدرت دموع على خد
دومني.

ونامت لفترة قصيرة، واستيقظت فجأة وهي تشعر بالبرد.
لم تعد الشمس تضيء الشرفة، ولا حظت أنه خلال غفوتها،
زحف الضباب الذي كان يعلو البحر وغطى الجزيرة كلها، وكون
حزاماً حول البيت. وكانت دومني قد نبهت الى توقع مثل هذا
الضباب، ولكنها لم تكن تتصور أنه يمكن أن يصل الى نهاية
الجزيرة بهذه السرعة، وتلك الكثافة وبشيء من التوتر تركت
الأريكة، وذهبت الى نهاية الشرفة لتنظر من فوق المصخور الى
البحر، ولكنها بصعوبة استطاعت التمييز، وأن سمعت صوت
تلاطم الأمواج وزحف الضباب ببطء ليلاص شعرها...
وساورها احساس بأنها معلقة مع البيت في السحب.

وسمعت وقع أقدام ولكن عندما التفتت سريعا، وجدت
يانيس قاعدا في اتجاهها، وصاحت:
"يبدو أننا منعزلون هنا يا يانيس."
وأوما بجدية قائلا:

"نعم ياسيدي، الرطوبة شديدة هنا في الخارج، ويجب أن
تدخل."
سأدخل يا يانيس.

وأشعرها اهتمامه بالدفع، وقالت:
"هنا، فوق، أشعر كأنني هيلين تسير على أسوار طروادة. هل
تعتقد أن الضباب سيستمر طويلا؟"
"بضعة ساعات ياسيدي".

"أوه... إذا فسيؤخر ذلك عودة زوجي وأخته، ألا تعتقد ذلك؟
الطريق الموصلة الى هنا ملتوية ومنحدرة، ومع صعوبة الرؤية
بسبب الضباب، لا أعتقد أن بول سيجازف بقيادة السيارة
ومعه أخته".

"أشك في ذلك ياسيدي".
وامسك يانيس بالباب ريثما نفذت دومني الى الداخل،
حيث وجدت المدفأة موقدة، وتقدمت منها فرحة وهي تجمع
أطراف ثوبها، ولم تستطع بسبب جروحها أن تنحني كما
كانت تحب لتستمع بدفئها، فجلست على مقعد بول، ومدت
يديها لتدفئتهما. وكانت ليتا تعد عشاءا خاصا احتفالا بقدوم
كارا، ولما كان من الأرجح أنهما سيتأخران بسبب الضباب،
أخبرت دومني يانيس أنها ستتناول شيئا خفيفا بجانب
المدفأة حوالي الساعة السابعة، وأضافت أنها ترجو ألا يضايق
ليتا التأخير في تقديم الوجبة الخاصة باستقبالهما.

وابتسم يانيس وهز رأسه قائلا:
"سعادتنا في أن تستردي صحتك من جديد، هل تخبين فنجان
شاي الآن، ياسيدي؟"

وأومات بالشكر والقبول، بينما اغرورقت عيناها بالدموع
وهي تراقب يانيس عند خروجه من الغرفة وبذلت دومني جهدا
في مقاومة الدموع التي أحست بالرغبة في ذرفها. وكان
فنجان الشاي ممتعا، بجانب المدفأة حيث مدت

قدميها . وكان الضباب قد امتد أكثر، وسمعت دومني دقات الساعة، وقررت أن تصعد الى غرفتها لترتدي ثوبا، كانت تشعر بالارهاق، ولكنها صممت على ألا تأوي الى الفراش، فالضباب كان يمكن أن ينجلي في أية لحظة، وسيكون ترحيبا أنيقا لكارا وبول أن يجداها في انتظارهما .

وارتدت ثوبا أزرق طويل الأكمام لتخفي جروح ذراعيها عن عيني كارا لئلا تزيد من قلقها، ولمحت وجهها شاحبا في المرأة، ووجود هالات سوداء حول عينيها . استعملت أدوات الزينة لاخفائها . وبدا لها الثوب متواضعا بعض الشيء، واحتاجت لعقد يضفي عليه رونقا . وفتحت الدرج الذي تحتفظ فيه بمجوهراتها، ووجدت بدلا من العلبة الجلدية البسيطة صندوقا رائعا حفرت عليه أشكال طيور، وأصداف . وفتحت دومني الصندوق، أجل . . . كانت مجوهراتها فيه، مرتبة في أدراج دقيقة الصنع أشبه بالاعماش .

كان الصندوق الأثري لحفظ المجوهرات هدية من بول، تعبيرا صامتا عن مشاركته ومودته، لأنه طيلة الأيام الثمانية المنصرمة، لم يذكر مرة واحدة شيئا عن فقد الطفل، وكان تصرفه في الواقع تجاهلا غريبا .

ولمست هديته، وهي تشعر ببهجة لم تتغلغل داخل قلبها، وأخرجت العقد البسيط الذي كان ملكا لأمها، والذي لبسته يوم زواجها، اللآلئ تعتبر دليل نحس للعروس، لكنها توقعت دموعا بعدد حبات العقد في ذلك اليوم، ولم يكن يهمها أنها تتحدى القدر .

في طريقها الى الدور السفلي، توقفت أمام نافذة، وأطلت منها ورأت أن الضباب ما زال يغطي المكان كله، ولمحت الأشجار في الغابة أشبه بالأشباح، وشعرت بالبيت خاليا، خاويا، وسرت اذ وجدت يانيس في غرفة الجلوس، يسدل الستائر، وكانت الأنوار مضاءة، ونار المدفأة مشتعلة .

وبدا لها أن التوتر يفقد حذته بتأثير دفء هذه الغرفة وأناقته وابتسمت وهي تشم رائحة الورود التي وضعها يانيس على منضدة قرب المدفأة، وفتحت الراديو فانسابت منه ألحان إحدى الفرق . . .

وتهاكت دومني على المقعد الذي قدمه لها يانيس، وقالت: "أما زال الضباب كثيفا؟"

وسكب لها كأسا من الشراب وقال:

"ما زال على حاله ياسيديتي ."

وتأملت كأس الشراب اليوناني الذي كان بول يقول دائما أنه يجب أن يؤكل معه التين وغطائر العسل، لأنه ما من مائدة عشاء في القديم كانت تكمل بدونه أبدا . وشعرت برجفة اذ بدا لها أنها تسمع ضحكته، ودقات نفسها برشفة . . .

وسمعت يانيس يقول وهو يحرك نار المدفأة للترداد اشتعالا:

"أنا متأكد أن السيد ستيفانوس لن يخاطر بالعودة في هذا الضباب ياسيديتي، والآن سأخضر لك الشوربا ."

وتناولت دومني الطعام لتسعد يانيس وزوجته، وليس عن شهية، ورفعت المائدة، وكانت تشرب القهوة وهي جالسة على مقعد بول، عندما سمعت طرقا عاليا على الباب الخارجي، وخفق قلب دومني اضطرابا، وكانت قد وقفت عندما فتح الباب وأقبل نيكوس ستيفانوس مسرعا، يتبعه باري سوتيرن .

١٢ - بين الكبرياء والحب

تقدم نيكوس بشعره الاسود المجعد من رطوبة الضباب، واتجه الى دومني مباشرة، وأمسك بيديها، كانت يداها باردتين، مرتجفتين في يديه، وأدركت أن شيئاً مزعجاً قد حدث، وانتقلت عيناها الى باري، كما لو كانت تستنجد به، ثم قالت لنيكوس:

"كارا وبول؟ أليس كذلك؟ هل قُتلا في حادث سيارة؟" وعرض نيكوس شفته، بينما دس باري يديه بعنف في جيبتي سترته. وبدت عيناها داكنتين وهما تلاقيان عيني دومني التي صاحت وهي تغرس أظفارها في يدي نيكوس:

"أخبرني!"

"كارا بخير، أنه بول، نقلوه الى المستشفى." وتلاحقت أنفاس دومني تسأل:

"هل أصيب بسوء؟"

والقى نيكوس نظرة الى باري، ثم ساعد دومني على الجلوس وقال:

"لقد نقل بول مريضاً الى المستشفى وحالته خطيرة." ووضع باري يداً فوق كتفها، وباليدي الأخرى قرب حافة الكأس من شفيتها وهو يقول:

"أشربي هذا."

وشربت، مدركة أنه أعطاها شراباً قوياً لأن نيكوس كان على وشك أن يضيف ما هو أسوأ مما قاله، ووقف نيكوس ينظر اليها بوجه شاحب ومكتئب، وقال:

"ليس من المتوقع أن يعيش ابن خالي، الأطباء يعطونه بضع ساعات فقط وفكرت أنك لابد تريدين أن تكوني الى جانبه يادومني."

وحملت في نيكوس ذاهلة، بول يقترب من الموت؟! شيء لا يصدق، واستطرد نيكوس يقول:

"لم يكن من الصواب اخبارك بنياً كهذا هاتفياً. وكان باري معنا في البيت، فجننا بالسيارة، كان الضباب المنخفض سيئاً، ولكن الرؤية الآن أكثر وضوحاً."

الضباب؟ وما أهميته؟ وقفزت دومني واقفة لمحت يانيس يقف قلقاً على عتبة الباب وكان واضحاً على وجهه أنه سمع ما قاله نيكوس عن بول، وانطلق يهز رأسه وهو ذاهب ليحضر لها معطفها ووشاحها، ذلك المعطف الجميل الذي ساعدها باري على ارتدائه، ووقف يغلق أزراره لها، ثم رفع ياقته حول رأسها الذي لفته بالوشاح الذي كانت قد اشترته من البلاك... البلاك التي اكتشفتها مع بول... بول يموت!

ووجدت نفسها تستقر في السيارة بجانب باري على المقعد الخلفي، ووقف يانيس وليتا على باب البيت الخارجي يراقبان في صمت كمشبحين، بينما كان نيكوس أمام عجلة القيادة، يلف ليتجه نحو الطريق المنخفض. وكان رأس ليتا ملفوفاً بوشاح أسود، وعيناها دامعتين.

وظلت عينا دومني جافتين تماماً، ولكنها كانت تشعر بهما أشبه بجمرتين في رأسها وأحسّت كأنها ظلت تتخبط وسط الضباب فترة طويلة، وبدأت أخيراً ترى بوضوح.

عرف بول منذ شهوور أن هذا المرض أصابه...

نوبات الصداغ كانت النذير ... وكانت أيضا الدافع وراء بعض أقواله وتصرفاته .

بول كان يعرف منذ فترة أنه سيموت !

وأخست دومني بيد باري تغلق في دفء على يديها مواسية . بينما كان نيكوس يتقدم ببطء في الطريق، وتحرك الى الأمام ياردات عدة، ثم أوشك على التوقف عندما قارب أعشابا في منحني شديد، وتذكرت دومني ليلة سابقة كانت تجلس بجوار بول وهو يقود السيارة في هذه المنطقة، لقد شعرت وقتذاك أنهما معلقان في النجوم، والآن لم تكن هناك نجوم، الضباب وحده وأشباح الأشجار .

وبعد فترة قال نيكوس أنه استطاع أن يلمح الفئار الذي يقع في منتصف المسافة بين أنديلوس وجزيرة مجاورة، وأن ذلك يعني أنهم يقتربون من الميناء، ومن المستشفى .

وخفق قلب دومني غنيقا سريعا بتأثير التوتر النفسي والعقلي . ومالت على كتف باري، مقدرة رفقة الصامته، القوية، ما الذي كان يفكر فيه وقد جلس ممسكا بيدها؟ ان القدر يلعب دوره، وأنه يجمعهما متقاربين ثانية ... والحياة توشك أن تفارق الرجل الذي وقف بينهما ؟

وقطعت دومني الصمت وقد انفك رباط حلقها وقالت:

"ماذا حدث يا باري؟ هل كنت في بيت العمه صوفيولا عندما ... عندما سقط بول مريضا ؟"

"كنت في الخارج في نزهة بحرية مع آل فانهوزن والكسيس ... وبدأ الضباب يتكاثف، وحينئذ عدنا الى الميناء ... وتناولت والكسيس كأسا عند آل فانهوزن، ثم رافقتها حتى البيت لأن تكاثف الضباب بدأ يزداد، ووصلنا الى البيت في لحظة كانت سيارة الاسعاف تنقل بول . وقد ذهبت كارا وعمته معه، وكان نيكوس في البيت فشرح لي ولالكسيس الموقف" .

وهمست دومني وهي تتصور حالة الفتاة التي كانت تحب بول كثيرا:

"مسكينة الصغيرة كارا، لا بد أنها صدمت صدمة شديدة" .

وقال نيكوس وهو يدقق النظر من خلال أنصاف الأتار التي تتركها مساحات السيارة خلفها:

"ذهبت معه دون دموع، بدت وكأنها كبرت فجأة" .

بلا دموع، لأن اليونانيين الذين يكون فرحا، يواجهون الكوارث في صمت والألم يمزق قلوبهم، وفكرت دومني أنه من الأشياء الطيبة، أن كارا ستجد نيكوس بجانبها . واستفرقت رحلتهم الى المستشفى وسط الضباب ساعتين، ولكنهم أخيرا وصلوا الى فناء المبنى وساعد نيكوس دومني في الخروج من السيارة ... وسار الثلاثة الى المدخل، حيث وجههم موظف الاستقبال نحو السلم المؤدي للطابق الذي يرقد السيد ستيفانوس في إحدى غرفه الخاصة .

وكان ضؤ الممر خافتا، وغرفة بول في منتصف المسافة، وعندما اقتربوا من الباب، كانت ممرضة تخرج حاملة صينية فوقها أدوات مغطاة بغطاء أبيض - واتجه نيكوس اليها، وسألها اذا كان من الممكن أن تدخل زوجة المريض لتراد . واستدارت الممرضة نحو دومني وقالت لها شيئا . لكنها كانت تتكلم اليونانية، وكان على نيكوس أن يشرح لها أن السيدة ستيفانوس انكليزية، ثم أخبر دومني أن الأطباء حاليا مع بول، وأن عليها أن تنضم الى الأقارب الآخرين في غرفة الانتظار . وهناك وجدوا كارا وعمتها، وقفزت كارا وهرعت نحو دومني، عيناها أشبه بعيني طلي مطعون، داكنتان وكسيران وحزینتان، وهتفت بياس:

"أوه يادومني، ماذا سنفعل بدون بول؟"

واحتضنت دومني الفتاة بقوة، ولكن لم يكن لديها اجابه لكارا، لم يكن لديها اجابة لنفسها .

وظلوا في الانتظار، لا يتحدثون كثيرا، بينما كانت ساعة الحائط تدق بانتظام، وكثافة الضباب تخف تدريجيا، لتترك السماء واضحة بعض الشيء، وفي منتصف الليل أقبلت ممرضة شابة تحمل صينية فناجين قهوة ينبعث منها البخار، وأمسكت دومني بالفنجان بيديها تحاول أن تدفئهما، حينما انفتح الباب ثانية، وظهرت الممرضة الاولى، وأشارت لدومني، وعندما قفزت كارا بدورها، قالت لها الممرضة بأسف انه غير مسموح لغير السيدة ستيفانوس برؤيته في الوقت الحالي. وتماسكت كارا ووجهها ينطق بالألم، وأخذت من دومني فنجان القهوة، وقالت بصوت مختلج:

"أذهبي اليه، انه حقك".

وتبعث دومني الممرضة الى غرفة بول، وعندما دخلت لم تلاحظ لأول وهلة الرجل الذي كان واقفا في رداءه الطبي الأبيض بجانب النافذة، وسارت دومني ببطء حتى السرير الأبيض، حيث كان بول راقدا في سكون تام، وعيناه مغمضتان، وقد ترك الألم علاماته الواضحة على صفحة وجهه، وبرقة متناهية لمست دومني وجنته، وأحست بالعظام الشامخة فيها، ولم يشعر بلمستها، لأنه كان فاقد الوعي.

ولم تسمع الطبيب وهو يعبر الغرفة في اتجاهها، ولكنها أحست بوجوده، واستدارت لتلتقي بعيني الدكتور هيتروس سويزا الطيبين وهمست:

"يبدو من الخطأ الجسيم يادكتور أن يكون بول ... هكذا، مغلوبا على أمره، ألا يمكن أن نفعل شيئا؟ هل سنقف مكتوفي الأيدي، ونتركه يموت؟"

وتفحصها الدكتور سويزا لحظة طويلة، ثم أمسك بيدها وقادها خارج الغرفة، التي دخلتها الممرضة في الحال، وأخذها غرفة الاستشارات، وأغلق الباب خلفهما بإحكام، وطلب منها أن تجلس، وأطاعت، ونظرت اليه من

فوق المكتب، وسألت بآلم:

"ما هذا الذي يقتل زوجي؟"

"قطعة صغيرة من المعدن، شظية قنبلة يدوية انفجرت في وجهه عندما كان يحارب في حركة التمرد".

"ولكن ذلك حدث منذ زمن بعيد، كيف استطاع أن يعيش طوال تلك السنوات؟"

"هناك حالات أكثر غرابة يا عزيزتي، وهذا الجسم المعدني لم يكن يسبب له أي قلق على الإطلاق، ولكن عقب حادثة معينة منذ سنتين بدأت المتاعب، هل تعرفين أن بول كان له أخ؟"

"لوكاس مات غرقا منذ عامين تقريبا، وكان بول هو الذي غاص في البحر ليحاول انقاذه".

"بالضبط، ولكنه بعدما خرج الى السطح، تعرض لحالة اغماء ورأينا أنه من الحكمة ان يبقى في المستشفى لمراقبة حالته، وفي بحر هذه الأيام أجرينا له اختبارات، واكتشفنا أنه أثناء خروجه الى السطح في حالة نقص الهواء، تحركت الشظية المعدنية تحت الضغط، واستقرت في مكان أكثر خطورة في المخ... ومنذ ذلك الحين يادومني بدأ زوجك يعيش في خطر".

ووضعت دومني يدها فوق حلقها المتألم وقالت:

"وهل أخبرته بذلك؟"

وبابتسامة يختلط الحزن فيها بالاعجاب، قال ميتروس:

"بول ستيفانوس ليس بالرجل الذي يمكن أن تخفي عنه الحقيقة انه مقاتل فدائي شجاع منذ السادسة عشرة من عمره، تحول الى رجل رائع بمرور السنوات، رجل شجاع، جريء، يحمل كثيرا من الاحترام لحقائق الحياة، ولا يمكن تضليله هاجمته موجات الصداغ دفعة واحدة، موجات حادة كانت تستعصي أحيانا على الأدوية، ولكن ليس دائما".

وجلست دومني ساكنة للغاية، كانت تستعيد المرات

التي عاش بول خلالها وحيدا داخل قوقعة آلامه، وأحست نحوه
بحنان بالغ، وأحست بغصة في حلقها وهي تسأل فيما يشبه
الصراخ:

"ألا يمكن فعل شيء؟ بكل تأكيد يمكن انتزاع هذه الشظية
المعدنية بالجراحة، وبول يملك التقود، انه يستطيع أن يدفع
نفقات أشهر جراح".

ومال ميتروس نحوها، وقال وقد عقد يديه:

"أوافقك تماما، توجد جراحة يمكن أن تنقذه، وبدونها
سيموت حتما كما لابد أن يأتي الصباح".

"ولكن إذا نزع جراح خلال الساعات القليلة القادمة الشيء
الذي يقتله، فإنه إما أن يموت، أو أن يعيش حياة أشد ظلمة
من الموت".

وحدقت دومني في ميتروس، وقد هوى قلبها، وهمست:

"تقصد، يفقد بصره؟"

"بالتأكيد، ولكننا لا نعرف ما إذا كان ذلك سيكون كليا أو
جزئيا".

ونفض ميتروس من مكانه، واتكأ على المكتب بجانب مقعد
دومني... وقال:

"توسلت الى بول أن يوافق على إجراء الجراحة، ولكنه انتفض
ذعرا من فكرة أن يصبح أعمى، وعبثا على الناس الذين كان
يرعاهم ويحميهم دائما. وفي مقدمتهم كارا الصغيرة، والآن
أنت يا عزيزتي".

وهمست دومني تخاطب نفسها:

"أوه... لماذا لم يخبرني؟"

"لأنه رجل يكره الشفقة... ولكن بالنسبة اليه، الموت أهون
من العمى، ألم تلاحظي كيف يحب اليونانيون أن يخرجوا من
بيوتهم منذ الصباح المبكر حتى الظلام تحت أشعة الشمس
الوهاجة؟ ألم تلاحظي كيف يضيئون بيوتهم بأنوار

ساطمة ليبعدوا ظلام الليل عنها؟ وبول كيوناني اختار أن
يموت لا أن يعيش في الظلام".

وتشبثت دومني بطرف المكتب وهي تقول:

"ولكن يجب ألا يموت! ماذا سنفعل بدونك، كارا وأنا، وكل
الناس هنا في الجزيرة، الذين يحتاجون اليه كثيرا؟"

وابتسم ميتروس قائلا في هدوء:

"هل تحققت مما قلته الآن يا عزيزتي؟"

وأومات برأسها، وقد امتلأت عيناها بالدموع، وهمست
بحرقنة:

"يجب أن تجرئ له هذه العملية، أنا، أنا أستطيع أن أوقع
على ذلك، ألا أستطيع يا دكتور سويزا؟ أليس ذلك حق
الزوجة؟"

ودار ميتروس حول المكتب، ورفع سماعة التليفون، وقال
وعيناها تنظران في عينيها:

"بالطبع هذا حق الزوجة، ولكن هل عندك الشجاعة لمواجهة
بول، وهو حي هائج بعد أسبوع من الآن؟"

وقفت، ورفعت رأسها عاليا، والتمعت عيناها الزرقاوان
ببريق شديد، وقالت بمعنويات مرتفعة:

"يستطيع أن يقتلني إذا شاء - أين الأوراق التي سأوقعها
يا دكتور؟"

قال وهو يدير رقما:

"أولا سأتصل بأثينا، كانت الابتهاالات صادقة، فأنقشعت عنا
غمامة الضباب، دعينا الآن نبتهل أن نجد الجراح الذي نحتاج
اليه بلا ارتباطات ليأخذ أول طائرة قادمة إلينا".

وأغمضت دومني عينيها، ودعت الله، بينما كان ميتروس
سويزا يتكلم في الهاتف باليونانية.

★ ★ ★

كانت ارض حديقة المستشفى مبللة بندى الصباح، وكانت العصافير تغرد على أغصانها، وأشعة الشمس تشرق فوق قمم الأشجار بلونها الذهبي فبعد ضباب اليوم السابق، أحسست دومني وهي تنظر من نافذة غرفة المستشفى التي تقاسمتها مع كارا، أن اليوم سيكون يوما رائعا.

وكانت كارا لا تزال نائمة، وقد عاد نيكوس بأمه الى البيت منذ بضعة ساعات، كما ذهب باري ايضا، بعدما ضغط على يد دومني في يده، مثلما فعل فيما مضى، في ذلك اليوم الذي افترقا فيه على الشاطئ الانكليزي، ولكن هذه المرة، كان كل منهما يعرف أنه فراق الى الأبد.

ووضعت دومني معطفها فوق كتفها، ومشت بحذر نحو الباب، لأنها لم تكن تريد ازعاج كارا في نومها، وفتحت الباب على مهل وخطت نحو الخارج، الى ممر بارد، حيث كانت الحركة قد دبّت، بغدو الممرضات ورواحهن، ونظرت كثيرات اليها لكنهن كن مشغولات فلم يقلن شيئا واتخذت هي طريقها الى الدور الذي يقع فيه غرفة بول. وعندما وصلت أمام الباب ترددت، ثم فتحت وأظلت على الداخل، كان سرير بول خاليا، والأغطية حلقة على جانب، تاركة مكانه خاويا تماما. لم تشعر دومني أبدا مثل هذه البرودة تسري في كيانها. احساس رهيب بالبرودة استبد بها وهي تنظر الى الفراش الخالي، مكان رأس بول كانت لا تزال علامته فوق الوسادة، وساعة معصمه كانت على المنضدة المجاورة للسرير. وأحسست بالدنيا تدور من حولها، وسمعت صوتا يقول لها تماسكي، ثم شعرت بيدين حازمتين تمسكان بها، وتجلسانها فوق مقعد، وجلست وهي ترتعش، بينما كان الدكتور سويزا يصب ماء مثلجا في كوب، ويقربه من شفثيها، ويقول:

"أيتها الطفلة الحمقاء... تعرضين نفسك لمثل هذا الذعر؟ كان يجب أن تنتظري حتى آتي وأخبرك بأن بول أخذ الى

غرفة العمليات، فقد وصل الجراح منذ نصف ساعة". وكان الماء باردا فوق شفثيها، وجاء الخبر دافئ الأثر، وسألت:

"كم ستستغرق الجراحة؟"

"بضعة ساعات على ما أعتقد، اسمعي يا صغيرتي، لفاذا لا تعودين الى البيت؟ ان أجواء المستشفى ستضغط أكثر وأكثر على أعصابك خلال الساعات المقبلة".

"أفضل أن أبقى، أعد بأن أكون عاقلة، سأشرب أنا وكارا القهوة، وبعد ذلك سنجلس في الحديقة".

"بصفتي طبيبك كان يجب أن أمرك بالعودة الى البيت، ولكنك بدون شك ستكونين أشد اضطرابا وأنت تنتظرين الأخبار، اجلسي في الحديقة، فالشمس أشرقت. والجو دافئ. ولن يصيبك أنت والأخت الصغيرة أذى هناك". وجلست، ونظرت اليه بعينين واسعتين في وجهها الشاحب، وقالت:

"هل الجراح ماهر يا ميتروس؟"

"واحد من أفضل الجراحين، صلب مثل بول نفسه، وأمثال هؤلاء الرجال يصلون دائما الى أهدافهم، ألا يفعلون ذلك؟" وعضت على شفثيها وهي تقول:

"لست متأكدة هذه المرة، ان بول بالتأكيد سيكرهني عندما ينتهي الأمر، ولكن كيف كان لي أن أتركه يموت؟"

وأسرعت دومني عائدة الى الغرفة التي تركت فيها كارا نائمة، حتى تخبرها بأن بول أصبح بين يدي الجراح، وأن الأمل معقود على أن يمنح بول نظره الى جانب حياته. ومر الوقت بطيئا، ثم فجأة لمحت دومني إحدى الممرضات مقبلة في اتجاه حيث جلست فيه مع كارا، ونهضتا، لمقابلتها، فأخبرتهما أن السيد ستيفانوس خرج من غرفة العمليات، وأنهما تستطيعان المجيء للقاء نظرة عليه.

وأضاهت الممرضة، التي كانت تتكلم اليونانية مع

كارا التي قامت بمهمة الترجمة أن الجراح يرجو بعد ذلك أن يتكلم مع مدام ستيفانوس.

وخفق قلب دومني ذعرا، والتقت بعيني كارا في توسل. وسألت كارا الممرضة بيونانية سريفة، ثم قالت: "الممرضة تقول أنها مجرد شكليات".

ولكن أصابعهما ارتعشت وهما في طريقهما إلى الداخل.

١٣ - الحب ينتصر على الكبرياء

بدا بول، شأن المرضى دائما عقب عملية طويلة ومرهقة، كأنه لن يصحوا أبدا. وكان رأسه ملفوفاً بالضمادات البيضاء، وانقطع حبل الصمت في غرفة النقاهة عندما تركت كارا أخيرا العنان لدموعها، وقالت وهي تشفق بعبراتها: "إن... ذلك لأنني سعيدة للغاية... سعيدة... سعيدة جدا لأن بول سيكون على ما يرام".

وكان الجراح رجلا طويل القامة، أسود الحاجبين، ثقيل الكتفين وقال لدومني بطريقته الصريحة الصارمة أن عليها أن تفهم أنه لا يمكن التأكد في هذه المرحلة ما إذا كان فقد بصر زوجها سيكون كلياً أو جزئياً فخلال انقزاع الشظية، تعرضت الأعضاء البصرية للتلف باختصار، يجب على السيدة ستيفانوس أن تعد نفسها للأسوأ، وأن تتمنى الأفضل، وفي أحسن الأحوال، فإن بول سيحظى بنور عينه اليسرى!

وأصرت العمة صوفيولا على أن تقضي دومني الأسبوع التالي في بيتها، لأنه أقرب إلى المستشفى، كذلك ليس من مصلحة دومني أن تبقى وحيدة مع القلق في ذلك البيت الكبير الخالي. ووافقت دومني على الاقتراح، لكن كان عليها أن تذهب إلى البيت لتحضر بعض الملابس، ولأنها أيضا

أرادت أن تطمئن يانيس وليتا إلى أن بول سيكون بخير .
ووجدت البيت ساكناً للغاية، ولكن في الخارج كان الرجال في حركة دائبة على الشاطئ . بعضهم كان يرفع الأحجار من سرداب الكهف الذي لم يعد صالحاً للاستعمال، والبعض كان مشغولاً بتركيب سلك كهربائي جديد لتشغيل مصعد يصل بين الشاطئ وأعلى القمة . كانت تلك فكرة بول، وكانت قد وضعت موضع التنفيذ منذ عدة أيام، وفكرت دومني أنها ستكون الآن مفيدة للغاية، لأن بول لن يتمكن من استعمال الممرات المتأكلة لمدة أسابيع، ربما حتى نهاية عمره، إذا لم تتحقق المعجزة التي كانت تدعو لها .

وكتبت رسالة لعمها قبل أن تنتقل إلى بيت العمّة صوفيولا وجلست أمام مكتب بول في غرفته الخاصة، واستعملت القلم المزخرف الذي كان ملكاً لجده . كان لديها الكثير لتخبر به العم هارتن، ولكنها لم تكن تريد أن تقلقه كثيراً، لذلك لم تذكر له شيئاً عن الطفل الذي فقده، واستغرقت الرسالة صفحات عدة، وأراحها أنها أخرجت على الورق بعض ما كانت تعانيه من مشاعر القلق بشأن حالة بول .

وبدت لها فردان بعيدة . . . كبيت في حلم . . . حيث تجولت ولعبت ولم تكبر أبداً - مثل أليس في بلد العجائب التي أعجبت بقصتها وهي صغيرة .

وجلست في هدوء على مكتب بول، ثم أمسكت بيدها ثقالة الورق النحاسية المصنوعة على شكل ذلك الحيوان الخرافي ذي القرنين . الهدية التي أعطتها لبول ذلك اليوم من شهر العسل في مدينة لوى يوم . . . غريب . . . وتذكرت كيف تمزقت أربا سعادة ليلة حبها السابقة قبل أن تتوارى الشمس وراء الأفق . وأخذت باصبعها تتابع خطوط الثقالة الخارجية، رمز أكثر الأشياء مراوغة، كان ذلك ما قاله بول، رمز السعادة، نسيج الاحلام . . . ونهضت تخرج من الغرفة وقد حملت معها

الثقالة مثل غنيمة .

وكانت ليتا قد حرمت حقبة لدومني، وحملتها إلى الباب . وكان الباب مفتوحاً، وقد وقفت على السلالم مجموعة من الناس خلف عيون قلقة، ومتهلفة لسماع دومني تؤكد بنفسها أن زوجها سيشفى من مرضه وسيعود قوياً من جديد . وكانوا جميعاً يحملون هدايا من الفاكهة والأزهار لتأخذها دومني معها . وحينما امتلأت ذراعاً دومني بالأزهار، لم تستطع أن تتكلم، لأن طوق التآثر أحكم إغلاقه حول حنجرتها، وتجمعت الدموع في عينيها، وتساقطت فوق باقات الورد الجميلة ذات الرائحة الزكية، حينما دفنت فيها وجهها، ثم ركضت نحو السيارة .

وكانت الأيام القليلة التالية أخف وطأة على دومني لأن كارا رافقتها، ونيكوس عندما يعود إلى البيت من العمل . لقد بدا جاداً وناضجاً منذ وجد نفسه مسؤولاً تماماً عن المكتب . وتنهدت العمّة صوفيولا قائلة وهي تطرز .

"أصبح ابني رجلاً . . . يخيل إلي أنني منذ يوم أو أكثر، كنت ما أزال أحمله طفلاً بين ذراعي . . . أه . . . ولكن سامحيني يادومني . . . ما كان يجب أن أحدثك عن الأطفال الآن، وإن كنت لا أشك في أنك سترزقين بأخرين مع تحسن حالة بول بعد العملية، إنه لن يلبث طويلاً يا صغيرتي حتى يعود إلى بيته ."

وظلت دومني تتشاغل بالمجلة التي كانت تتصفحها، ذلك أن أحاديثها مع بول بجانب سريرته، لم تكن تتضمن أية إشارة للمستقبل، وكانت كارا تذهب دائماً معها خلال زياراتها له، وكلما كانت تلمح برغبتها في تركهما على انفراد لحديث خاص، كانت دومني تصاب بالهلع، وكانت دائماً تفرح عندما ترى ابتسامة بول وهو يأمر أخته أن تبقى حيث هي . وكانت كارا، وهي تبدو أشبه بجنية في الثوب الأخضر،

أفضل ثيابها ، تعود الى الانكماش ثانية بجانبه على السرير ، وهي تنقل بينه وبين دومني نظرات حائرة .

وقد لاحظت دومني هذه النظرات ، وان تظاهرت بغير ذلك . كانت بمرور الأيام تحاول أن تبدو عادية التصرفات قدر الامكان ، وكانت الأربطة حول رأس بول تقل يوما عن يوم ، وعن قريب كانت الضمادات سترفع عن عينيه ، وعن قريب كانت ستعرف اذا ما كان سيرى قليلا ، أم لن يرى على الاطلاق .

وكانت دومني قد ارتدت ثيابها استعدادا للذهاب الى المستشفى عصر يوم الجمعة ، عندما اكتشفت عدم وجود كارا في أي مكان في البيت ، ولم تستطع العمة صوفيو لا أن تعرف مكانها ، لكنها أضافت أن دومني ليست مضطرة الى انتظارها ، لأنها تضع دقائق ثمينة من ساعة الزيارة المحددة .

وقالت دومني وقد تقلصت أصابعها فوق الحقيبة التي تحمل فيها الفاكهة لبول :

" ألا تأتين معي يا عمتي صوفيو لا ؟ "

وربتت العمة على ذراعها وقالت :

" يا طفلي العزيزة ، هذه فرصة ذهبية لك لتنفرد ببول . ما كان يجب أن تأخذي كارا معك كل مرة ، أنا على ثقة بأنها تحتكر كل الحديث ، يالها من فتاة ثرثارة ! انها أحيانا توجع رأسي العجوز " .

" ولكن بول يستمتع بالصحبة ، من فضلك تعالي " .

وحينئذ نظرت اليها العمة صوفيو لا بدهاء وقالت لها بصراحة :

" هل أنت خائفة من الانفراد ببول ؟ هل تخشين أن يلومك ، اذا اكتشف بعد رفع الضمادات أنه أعمى ؟ "

وأجابت دومني برنة ألم :

" عمتي صوفيو لا ... انك قاسية القلب ... "

قالت العجوز بجفاء :

" ان هذا يجري في دماء الأسرة " .

وظلت واقفة أمام الباب حتى ركبت دومني السيارة القديمة ولوحت لها والسائق ينطلق بها . وعرف بول في الحال أنها جاءت بمفردها ، وكانت تتكلم بعصبية طول الوقت وهي تخرج ثمار العنب والخوخ من الحقيبة ، وترتبها في طبق على المنضدة الملاصقة لسريره . وكانت أوراق الورد التي أحضرتها في اليوم السابق تناثرت على الأرض ، فأنحنت لتلتقطها ، وتجمعها في يدها مختلصة نظرة نحوه ، لترى أنه كان غير مرتاح في جلسته والوسائد خلف ظهره ، وبدا عابسا تحت أنفه الشامخ المتعجرف .

وقالت دومني :

" أعرف أنك تحب أن ترى كارا ، ولكن ... "

وهنا قطعت كلامها ، ولكن بعد فوات أوان التنبه الى الفاظها وتلعثمت ثم استطردت تقول :

" هل ... هل تحب أن تأكل خوفا ؟ سأقشر لك واحدة " .

وبهدوء قال :

" دومني ، يوجد شيء أريده " .

ووقفت في لهفة بجانب سريره متسائلة :

" ما هو يا بول ؟ أخبرني من فضلك " .

وأدار رأسه وبدا كما لو كان ينظر اليها مباشرة من خلال الضمادات وقال :

" أريد أن تشتري تذكرة طائرة ، وأن تعودني الى انكلترا " .

وحذقت فيه غير مضدقة ، وهتفت :

" ماذا ؟ "

ووضع يديه وراء رأسه وقال :

" لقد سمعتني " .

ولم ترفع بصرها عنه، كانت الشمس تلقي أشعتها من خلال النافذة على سرير، في خطوط أشبه بجلد النمر، وشعاع ذهبي منها استقر على عنقه الأسمر، حيث كانت سترة البيجامة مفتوحة... ولمحت دومني حركة حنجرته وهو يبتلع وانفجرت قائلة:

"إذا كنت تعتقد أنني سأشتري هذه التذكرة، فأنت مخطيء للغاية، سأبقى هنا..."

قال بجفاء:

"سيخرجونك من هنا بعد خمسين دقيقة..."

ومالت فوقه، واستندت بيدها على السرير، وقالت:

"كان من الضروري أن أوقع الأوراق..."

"تقصدين... أنهم أرغموك؟"

"كلا... فعلتها بنفسني من أجلك يا حبيبي..."

"ماذا دعوتني؟"

ومن جديد أحست كأنه يتأملها من خلال الضمادات، وبدأ فمه متردداً، مسترخياً بعد توتر اللحظة التي مرت... واندفعت دومني كالعاصفة تقول:

"دعوتك من قبل الطاغية اليوناني! والآن تقول لي أن أذهب إلى انكلترا؟ هل تعتقد أنني أذهب وأنت في هذه الحالة؟ من حقي معرفة ما إذا كانت عينك اليسرى سليمة كما هو حقك!"

"منذ متى؟"

"منذ أن دخلت حياتي، وجعلتني زوجتك..."

وبحث بيده... فوضعت يدها فيها، وأغلق أصابعه بإحكام على أصابعها، وسأل:

"هل أنت أسفة علي؟"

"أسفة عليك؟ أنني أسفة على نفسي، لأن عليّ أن أحتملك لمدة الخمسين عاماً المقبلة، أيها الطاغية، يالها من حياة!"

"أنا لا أسألك أن تبقي..."

"أنت لم تسألني أن أحبك، أخبرتني أن احتفظ بالحب، سوف احتفظ به لنفسني إذا كان لا يزال ذلك ما تريد يا بول، ولكنك لفترة سوف تحتاج إلي... وأنا في خدمتك!"

ثم أطلقت شهقة عالية عندما عادت أصابعه تسحق أصابعها من جديد، ورفع يدها إلى فمه وقال:

"يا لأنوثتك وأنت تهددين وتبكين في الوقت نفسه..."

"أنا... أنا لا..."

"لست أنثى؟"

"لا... لا أبكي..."

وسقطت فوق السرير، ودفنت وجهها في كتفه، وتركت العنان أخيراً لدموعها المختزنة، وأسند رأسه على صدرها، وداعبت شعره بأصابعها وهي تقول:

"الدكتور سوزا متفائل جداً... كلنا متفائلون... وأنت؟"

"هل أستحق أن أكون؟ لقد انتزعتك من كل ما كان عزيزاً عليك، وخدعتك تلك الليلة الأولى، وحطمت قلبك بفقد الطفل... وعانقته وقالت بنعومة:

"لا تتكلم بعبارات كهذه يا بول فاني أحبك، جعلتني أحبك منذ فترة طويلة، ولكن الكبرياء كان دائماً رذيلتي، ولم أستطع أن أعترف بهذا الحب لنفسني فكيف كنت أستطيع أن أعترف به لك؟ أوه يا بول عندما أخبروني أنك تموت، أردت أن أموت معك، وحينما قال الدكتور سوزا أن هناك فرصة ولو فرصة عمياء... كان لابد لي أن أدعك تنالها يا حبيبي..."

وتحسست رقبتة، وكتفيه، وشعرت بعظامها تتفتت عندما احتواها بين ذراعيه بطريقته القديمة، وانطلق يهمس بصوت متهدج:

"ضقت ذرعاً بهذا المستشفى، يجب أن ينزعوا هذه الارتبطة سريعاً، أريد يادومني أن أعود معك إلى البيت..."

وضمها أكثر وقال هامساً:

"الشمس والقمر والنجوم مظلمة الآن يادومني، ماذا لو ظلت
هكذا بالنسبة الي؟"
"ان شخصين يستطيعان الرؤية عبر الجبال والمحيطات يابول،
اذا كانا معا، وكل منهما بحاجة الى الآخر."
"تبدو الآن يا حبيبي انعم ملمساً، كنت تبدو قبيحاً بعد
العملية."
"هل أرهبتك؟"
"وهل مضى أبدا وقت لم ترهيني فيه!"

★ ★ ★

وعادا الى البيت بعد أيام قليلة، حيث وقف بول في
الشفرة، وقد لف ذراعا حول خصر دومني، ورأى من جديد
زرقة البحر الأيوني العميقة منعكسة في عينيها اللتين
رفعتهما نحو وجهه في حب. ولم يكن ملحوظا أن بول فقد
بصر عينه اليمنى كلية، ولكن الرؤية في العين اليسرى كانت
تشدد يوماً بعد يوم.
وشردت أفكار دومني، العينان اللتان تشبهان عيني
النمر... وازدادت التصاقا ببول... أحست أنها تحبه
كثيراً... العزيز المسيطر، الذي واجه رصاص البنادق
والقنابل في السادسة عشرة، والذي سيرث منه أبنائه
الشجاعة والجرأة.

وقال بول:

"سنعيش حياة طيبة معا يادومني، الآن سيكون حالنا كذلك
اليوم الذي كنا فيه معا في كورنويل، هل تذكرين الثقالة
النحاسية؟"

وأومات في سعادة وقالت:

"كانت في حقيبة يدي كل يوم ذهبت فيه لزيارتك

في المستشفى، هذا الحيوان الخرافي جلب لنا الحظ،
والسعادة يابول."
أضاف وهو يضمها أكثر، وبلا نهاية:
"وأنت جلبت لي الحب."
ولم يتركها حتى أقبل يانيس مبتسماً ليخبرهما أن الشاي
في انتظارهما.